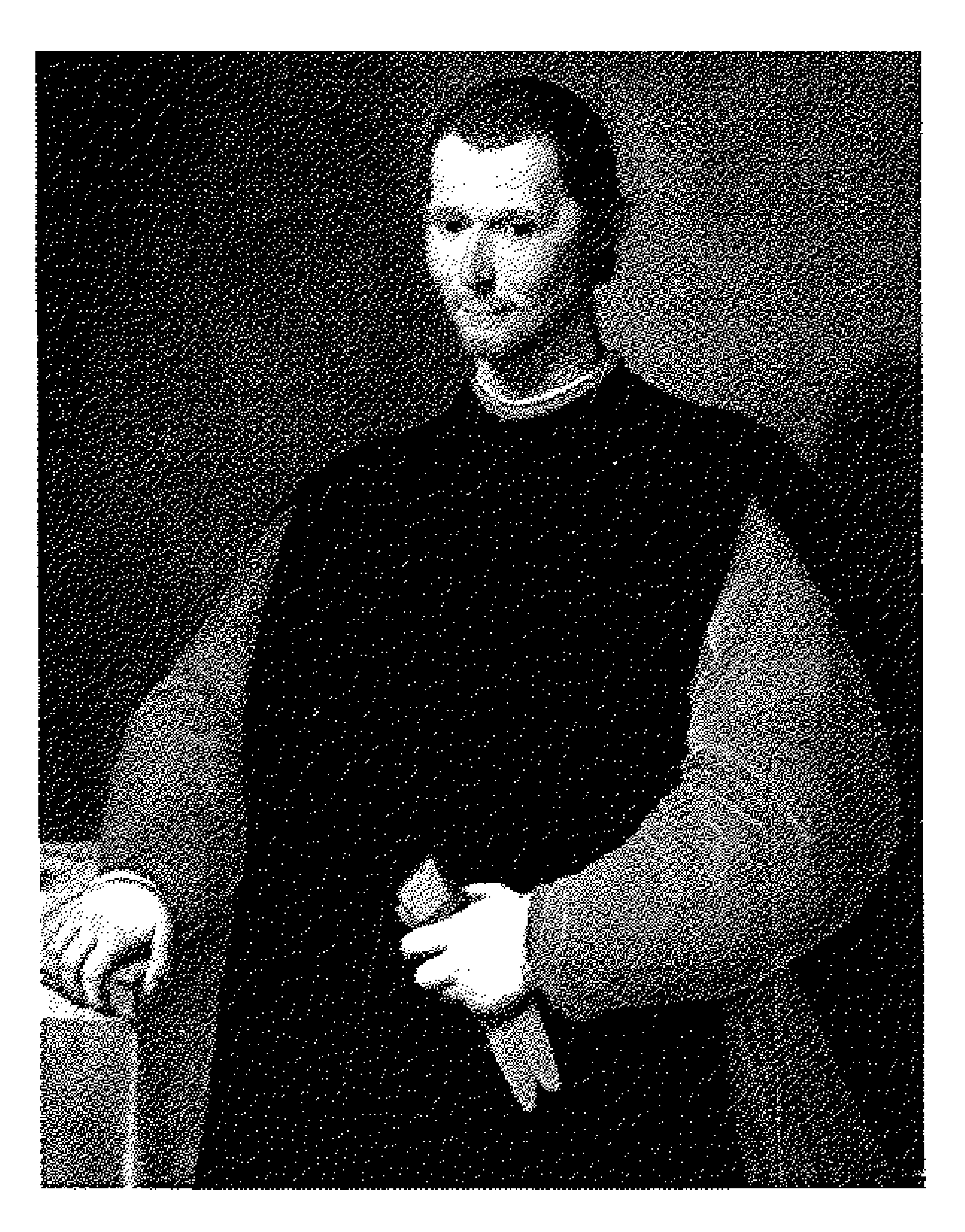
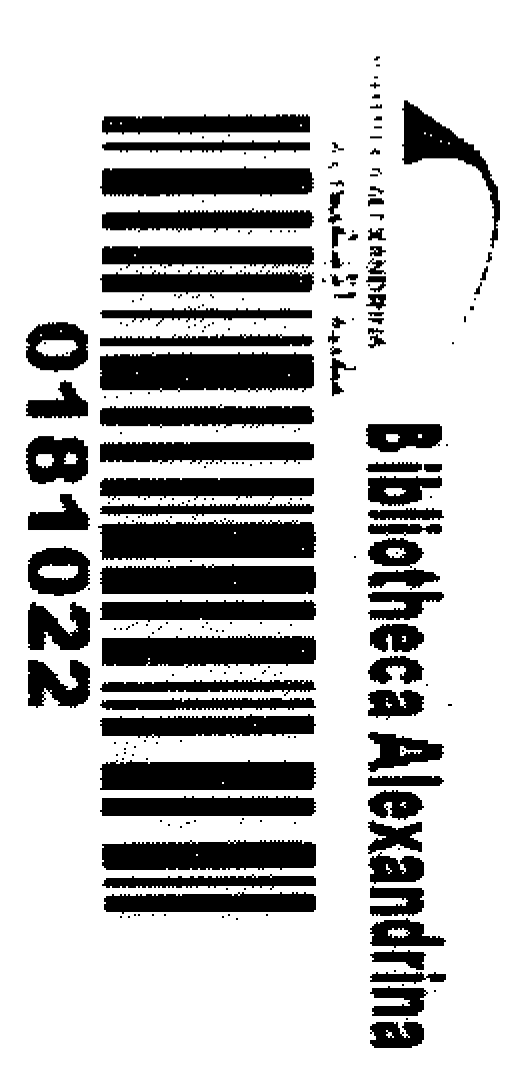
فـــردريـــك الثـاني
مـــلك بـــروســـيا

الـــرد عـــلى ماكيـــافـيل



ترجمة : الحسن اللحية



أفـريـقيا الشـرق

الرد على ماكافيل

ترجمة ــ الأستاذ الحسن أبو اللحية
عنوان الكتاب
الرد على ماكيافيل

رقم الإيداع القانوني 598 / 1998
ردمك ISBN. 9981-25-105-4

أفريقيا الشرق ــ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء
الهاتف 25.98.13 - 25.95.04 ــ فاكس 440080

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

فردريك الثاني
ملك بروسيا

الرد على ماكاڤيل

ترجمة: الحسن اللحية

أفريقيا الشرق

عرّب الكتاب عن:

L'ANTI - MACHIAVEL

FREDERIC II

Avec les corrections de Voltaire

Paris Editions Garnier Frères

بـــدون تاريـــخ للنشـــر

الإهـــــــداء

إلى هؤلاء الذين يخترقونني عبر الذاكرة والتكوين والموقف والجوانية .....

إلى الأستاذ الشيكر محمد و الأستاذ عبد السلام بنعبد العالي ، ومن دون أن أغفل المناضلين أبراهام السرفاتي وعبد الله إبراهيم ، وإلى زوجتي ثريا التي كانت وماتزال منبع الدفء ورمز المرأة.... إليهم جميعاً .

أهدي هذا الكتاب آملا ، كما عرفتهم جميعا ، أن يكون جسرا مفضيا لطرح إشكالات السلطة بالفعل .....

ملاحظة: الهوامش من وضع المترجم

مدخل لقراءة ماكيافيل

تعترض الباحث المدقق في مؤلفات نيكولاس ماكيافيل إشكالات لا محيد عنها، منها ما ينتمي للترجمة التي خضعت إليها مؤلفاته منذ منتصف القرن السادس عشر[1]، ومنها ما يرتبط بلحمة الأثر الماكيافيلي نفسه، حيث لا نستطيع الإنفكاك عن اسئلة من قبيل:

1 ـ لأي جانب ينحاز الأثر الماكيافيلي، للشعب أم للحكام؟ وأي نوع من الحكام وأي فئة من الشعب؟ [2].

---

1 - خضعت مؤلفات ماكيافيل لترجمات عديدة، واحتل فيها كتاب الأمير النصيب الأوفر منذ 1550. ومن الملاحظ أن كل ترجمة تعكس هموم عصرها، ومفاهيم زمانها مما يجعلنا نقف على اختلافات متعددة من ترجمة لأخرى، فمفاهيم مثل Vertù مثلاً تتضارب حولها الترجمات، منهم من يترجمها بالفضيلة ومنهم من يترجمها بالحظ، ناهيك عن تضارب الترجمات حول الإمارة والمقاطعة والدولة والإقليم... ولكي نخرج من مثل هذه المشاكل نقترح الرجوع لمؤلف فليكس جيلبير Felix Gilbert المعنون بماكيافيل وغشارديني الصادر عن دار Seuil الفرنسية سنة 1996 ، حيث عمل هذا الأخير على فحص سجلات وأرشيف فلورنسا، ولاحظ ورود المفاهيم الرائجة فيها في مؤلفات ماكيافيل.

2 - يؤلف هذا الإشكال تاريخ الماكيافيلية، بحيث أننا سنجد في جميع المؤلفات التي تناولت ماكيافيل سؤالاً صامتاً هو: كيف نقرأ ماكيافيل؟ وهو منطلق جميع الإشكالات المرتبطة بماكيافيل على وجه العموم، فمنهم من صرح به كالفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي و الفليلسوف الفرنسي ميرلو بونتي والسوسيولوجي الفرنسي ريمون آرون والباحث الفرنسي كلود لوفور، ومنهم من لم يصرح به.

2 ـ هل يحق لنا أن نحكم على تصور ماكيافيل السياسي إنطلاقاً من كتاب "الأمير" وحده الشائعة قراءته بين الناس أم إنطلاقاً من مؤلفاته كلها رغم تناقضها البين؟

3 ـ ما نوع القراءات التي خضع لها ماكيافيل في الغرب وعند العرب؟ [3].

4 ـ هل بإمكاننا أن نتحدث عن نهاية الماكيافيلية بالنظر لتطور المؤسسات والدولة، والإبتعاد عن عصر الإقطاع في الغرب أم أنها حاضرة في بنية الدولة على الإطلاق، وفي كل تفكير سياسي كيفما كان؟ [4].

للإجابة عن هذه الأسئلة، علينا أن نستحضر الواقع الإيطالي عامة والفلورنسي خاصة منذ ظهور إمارة الكنيسة وحروب إيطاليا مع جيرانها

---

3 - يمكن أن نصنف القراءات العربية لماكيافيل إلى:

أ – قراءات استعراضية وصفية اكتفت بعرض ما في "الأمير" كقراءة كمال عبداللطيف في كتاب "دراسات مهداة إلى الدكتور الحبابي.

ب – قراءات استكشافية من صنف آدب الرحلات كقراءة لطفي جمعة الذي ترجم "الأمير" سنة 1910.

ج – قراءة مستحيلة جمعت بين ماكيافيل وابن خلدون كتلك التي قام بها عبدالله العروي في ندوة ابن خلدون الصادرة عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

دون أن نغفل قراءات أخرى تستند إلى تاريخ الفكر، بمعنى أنها تعمل بمفاهيم التأثير والتأثر والجدة والخطية كقراءة خيري حمادة وفاروق سعد، أنظر: كتاب "الأمير"، الطبعة 19، دار الآفاق الجديدة، البيضاء.

4 - عرف فكر النهايات منذ نتشه تطوراً كبيراً: نهاية الفلسفة، نهاية الميتافيزيقا، نهاية الإيديولوجيا، نهاية التاريخ، نهاية الإنسان، ونحن حينما نطرح نهاية أو حضور الماكيافيلية فإننا نحيل على المفهوم، ثم إن النهاية هي التحويل الممكن للمباشرة: حاكم/شعب، التي تتطور بتطور المؤسسات ومن هذا المنطلق فإن الماكيافيلية هي لعبة الديمقراطية عامة. كما أنها هي إشكالية السلطة كما طرحها ميشيل فوكو.

كفرنسا وسويسرا وألمانيا وإسبانيا،[5] والظروف التي كتب فيها الأمير والمؤلفات الأخرى كـ"فن الحرب" L'Art de guerre، والخطابات Discorsi وتواريخ فلورنسا Les Histoires de Florence والمسرحيات والأشعار والأناشيد العائلية والخاصة، كما علينا أن نتبين الصراع العام بين الأرستقراطية والبورجوازية التجارية الذي عبر عنه الأمير بقوة. [6]

ظل كتاب الأمير لنكولاس ماكيافيل محط إهتام وجدل ونقاش حاد دون غيره من المؤلفات الأخرى، لذا فإننا نستبعد منذ البداية الحكم على ماكيافيل انطلاقاً من الأمير، كما رافق الأمير النقاش والصراع، وصار ردا خارج إيطاليا على الماكيافيلية التي اجتاحت أوربا. [7]

لم يقتصر الرد على المعارضين لاستبداد أنظمتهم، بل طال التوجهات الدينية المتعددة، وصار ماكيافيل ماكيافيلية أي: علامة على الإلحاد والزندقة والفساد السياسي والسلطة الزمنية والهرطقة، والبخل الكاثوليكي الذي قورن في أدبيات القرن السابع عشر بيهود مالطا Les Juives de Malte.

5 - نشير إلى كثرة المؤلفات التي تناولت التاريخ الإيطالي في عهد ماكيافيل ككتاب جوليان لوشير وجاك هيرس وجورج مونين وغيرها، وقد طغى على هذا التأليف تناسخ المعلومات ومصادر الحدث وتماثل الرؤيا بدء بشارل بنوا وصولاً إلى جال هيرس دون إغفال رينودي ومونين وميسنار وعيرهم. الشيء الذي يفقد هذه الأعمال الجدة في البحث بالمقارنة مع أعمال ميشيل سيلينار وكلود لوفور ودفورنوي إلخ...

6 - فيما يخص الصراع الأرستقراطي - البورجوازي يمكن الرجوع لرسائل ماكيافيل طبعة غاليمار.

هناك نقطة أخرى تستحق الإنتباه والبحث المعمق وهي الإكتشافات الجغرافية التي تغافلها ماكيافيل على عكس مواطنه غيشارديني. ويمكن التنبيه في هذا الباب إلى كتاب ريجيس دوبري عن الإكتشافات الجغرافية.

7 - يرصد كلود لوفور تاريخ الرد على الماكيافيلية في كتابه Travail de l'oeuvre de Machiavel الصادر عن دار Tel Gallimard بقوله أن الماكيافيلية من صنع التيارات الدينية المتصارعة خلال القرن السادس والسابع والثامن عشر.

وما كان لينشر الرد خارج إيطاليا لولا الغزو الفرنسي لميلانو Milano أكثر من مرة، ولولا محاربة الفرنسيين للنزعة الإيطالية[8] التي رافقها عمل التراجمة. ونشير إلى أن فرنسا قد طالبت بحق الإرث في الحكم على ميلانو.

وأما ما أثاره كتاب الأمير بين الفلورنسيين فقد جاء مباشرة بعد نشره، من رفاق ماكيافيل الجمهوريين، لقد أكد الكاردينال بول Pôle ، المؤرخ الإيطالي على عهد ماكيافيل، مجموعة من الحقائق التاريخية الملتصقة بظروف كتاب الأمير، حيث أثار حقدهم وحقد عائلته، معتبرين الأمير مؤلفاً في الإجرام، لكن ماكيافيل في نظر بول ظل بعيدا عن رأيه الشخصي في هذا الكتاب، مؤكداً نزعته الجمهورية.

وأما المؤرخ توسكانو Toscano وهو من ميلانو، فقد أثبت نفس الحكم الذي خلص إليه بول، يقول بأنه سمع من الجمهوريين الفارين إلى ميلانو ترديد قول لماكيافيل يقول فيه: «لقد قدمت درساً للأمراء بنية أن أبين لهم ضجرنا من سياستهم واستبدادهم، فإما أن يندفع الناس نتيجة فقدان الأمل نحو التمرد والعصيان، وإما ينتظروا قدرة الإله المخلصة المعاقبة لهؤلاء الزنادقة».[9]

---

8 - تثير هذه النقطة جدلاً كبيراً بين المهتمين، وقد تجسدت النزعة الإيطالية في زواج كاترين دو ميدسيس بأحد أمراء فرنسا، وفي وصول الكاردينال مازران إلى منصب الوزير الأول في الحكومة الفرنسية، وفي غزو الفكر الإيطالي لفرنسا من تأليف وترجمة وفن كالمسرح والرسم.
أدخلت كاترين دو ميدسيس كتاب "الأمير" أول مرة إلى فرنسا، واتهمت بتلقين ما فيه للأمراء الصغار، واعتبر جيل مازران ماكيافيلياً لنجاحه الديبلوماسي ولمؤلفاته السياسية كـ"دليل الرجل السياسي" راجع: "ماكيافيلية مازران"، الحسن اللحية، جريدة الحياة اليومية، العدد 19، 1997.

9 - جورج مونين: "ماكيافيل"، دار سوي، باريس، 1958.

كيف سنعالج التناقض الموجود بين هذه الأقوال السابقة ومنطوق الأمير المناقض لها ؟ وكيف سنجد مخرجا يجمع تناقض الأمير مع الخطابات؟

فيما يخص المؤلفات الماكيافيلية، لا نعثر على أي شيء نستطيع من خلاله إلغاء التناقض، مما يضعنا أمام مفارقة، لكننا إذا ما انطلقنا من نزعته الجمهورية ومن الوضع المأزوم لإيطاليا سنجد مخرجاً يدلنا على معنى الفصلين الأخيرين (25 و 26) من كتاب الأمير، وعلى دلالة التقديم والإهداء للورو العظيم:

أولا: أثبت الباحث الفرنسي رينودي Augutin Renaudet أن ماكيافيل ظل جمهورياً طيلة حياته، رغم ما نعثر عليه من تناقضات في كتاب الأمير نفسه،[10] وكانت عائلته جمهورية، وما يفسر نزعته الجمهورية هو ارتباطه بالمؤسسات والقوانين والجمعيات والقضاة المأمورين، وكان دائماً يرد فلورنسا إلى منبع العهد الروماني الجمهوري،[11] كما تشهد على ذلك الخطابات.

ثانياً: نعثر في الأمير نفسه على إهداء للرو العظيم Laurent ، وكان لرو من أبرز حكام فلورنسا الجمهوريين الذي أنعش حركة الترجمة وشارك الفنانين والشعراء، وبنى أكاديمية للفلسفة، واعتبره ماكيافيل رمز الجمهوريين، ولما توفى انقلبت السلطة إلى الاستبداد رغم وجود المؤسسات.

إن ظهور الدويلات واختفائها فجأة،[12] وكثرة الحروب الداخلية والخارجية وكثرة المعاهدات والأحلاف بين الإمارات، وإلغائها دون إذن

10 - أوغستين رينودي: "ماكيافيل"، دار غاليمار، باريس، 1956 - 1958، ص 36.
11 - نفس المرجع، أوغستين رينودي، ص: 36، 37 و 38.
12 - من دويلات إيطاليا نذكر: بارم - بلزانس - ريغيو - مودينا - فراري - مانتوا - فرون - ريمني باسارو - سنغاغيا - أوربان - غوربسيا - أودين - بروز - سيان - ستادي كاستيلو - لوك - بستوا - أرزو - بيومبيو - كاميرينو - فورلي - إمولا - بولون - جنوة - فلورنسا - ميلانو روما - صقلية.

مسبق، وحياة سياسية مليئة بالخيانة والحيل والمؤمرات، وبروز الديبلوماسي الداهية، والمرتزقة لدلالات تاريخية لصورتين متناقضتين هما: لرو العظيم/سيزار بورجيا اللتان جعلتا ماكيافيل بين مناداة شعب حر، ومناداة أمير يظهر مرة كخالق وطوراً كنبي وحيناً كبطل، مما جعل أحد الباحثين يرى أن ماكيافيل ينادي أميراً لا وجود له في الواقع.[13]

ثالثاً: يجيب المتن الماكيافيلي من خلال طرحه للجيوش الوطنية مقابل المرتزقة، والدعوة لتأسيسه في مختلف المؤلفات الحاضرة بشدة على هزائم إيطاليا وسبب الأحلاف التي تأتي من فقدان جيش وطني، وذلك هو السبب المباشر الذي دفعه لتأليف كتاب "فن الحرب" L'Art de la guerre.[14]

رابعاً: هناك أدلة أخرى تطور ما جاء في الأمير من قضايا، لكنها تتخذ أبعاداً أدبية كالمسرح والشعر والأناشيد، ومنها ما تلفه اللغزية المقصودة أو

---

13 - جون فرانسوا دي ڤورنوي: "ماكيافيل"، سلسلة بورداس، 1976 - 1986، باريس، ص: 100 إلى 103.

14 - لا يميز ماكيافيل في هذا المؤلف بين الحكم الجمهوري والملكي، لأنه يرى أن الجيش الوطني واحد بالنسبة لهما معاً مما يطرح مشاكل إضافية تستدعي مقارنات عميقة بين الملكية والجمهورية قديماً وحالياً. وعلى العموم يدور مؤلف "فن الحرب" حول:

أ - مشاكل تقنية كالتجنيد واختيار الجيوش وانتقاء الأسلحة وتكوين الفرق العسكرية وصنوف المعارك وارتباطها بالأمكنة، وأهمية الإنضباط داخل الجيش ومهام الأمن عموماً إلخ...

ب - مشاكل وظيفية ترتبط بعلاقات الدولة بالجيش، كالمهام الدائمة للجيش قبل وبعد المعارك.

ج - علاقات الحاكم بالجيش، وعلاقات القواد فيما بينهم ومع أميرهم وجيوشه. ونشير إلى أن القضايا المطروحة في هذا المؤلف أشير إليها في غيره من المؤلفات كـ"الأمير" و"الخطابات"، وهو ما يفند كل قراءة انطلقت في حكمها على ماكيافيل انطلاقا من "الأمير" وحده.

الطابع الأسطوري، الشيء الذي يدفعنا لنتساءل: ما الذي جعل ماكيافيل يرتدي الأقنعة في الأعمال الأدبية ويغير المباشرة التي دافع عنها في الأمير؟

1 - يرثي ماكيافيل في القصيدة الأولى "Première décennale" الإيطاليين أحياء وأموات بعد غزو شارل الثامن ملك فرنسا لإيطاليا، واتسمت القصيدة كذلك بطابع الوصف لأحداث كبرى كفرار بيير دو ميدسيس Pièrre de Medicis من فلورنسا، ولثورات الفلورنسيين المتتالية ثم لصعود الراهب الدومينكاني جيروم سافونارولJérôme Savonarole إلى الحكم بفلورنسا، ذلك الراهب الذي طرح إشكالات تاريخية على ماكيافيل: هل يمكن الوصول إلى الحكم عن طريق الدين وحده؟ هل تمكن المحافظة على الحكم بالدين وحده؟

استحضر ماكيافيل تجارب متعددة في الأمير، وهي تجارب الأنبياء كداوود وموسى وكورش، واقتنع بتلازم الدعوة والقوة، وفي الخطابات دافع عن أهمية الدين في الروابط الاجتماعية بين الناس لا السياسية.

تطرح تجربة سافونارول مشاكل أخرى: هل دافع عنها ماكيافيل قبل وصوله للحكم؟ لماذا رحب بها في البداية؟ لماذا انتقدها بعد حرقه؟

ليس لدينا ما نفصل من خلاله في الأمر، لذا ترانا نتوجه إلى قراءة الباحث الفرنسي إميل نامير في ماكيافيل عن دار P.U.F.

ب - وأما في القصيدة الثانية La deuxième décennale المؤرخة من 1509 إلى 1515 فإنه رام الحكي عن الحركات الخطيرة المهددة لأحوال الأنظمة.

ج - وفي قصيدة L'Ane d'or يستلهم صور متعددة كالأب والنبي، يحث الناس ويوجههم، يبكي حالهم ويرثي مصيرهم.

د - أما قصيدة Capitale de l'occasion فإنها تفسير شعري لمفاهيم واردة في كتاب الأمير كالحظ والفرصة والطموح، والمناسبة والصدفة، فهي الأمير بلغة شعرية.

هـ - يبرر ماكيافيل وطنيته في مقال يتناول اللغة، وقد كانت ظروف تأليفه نقاشات حول اختلاف لغة الإمارات فيما بينها، وبالتحديد اختلاف لغة الشعراء بين الفلورنسية والتوسكانية والإيطالية الأم.

أراد القائلون بالاختلاف اللغوي دعم الإقليمية مستدلين في ذلك بتداخل العامية واللاتينية واللغة الإيطالية دون تمييز أو بحوث فليلوجية Phililogique، لكن ماكيافيل عمل على تمييز الحدود وأسباب التداخل والخلط، موضحاً عوامل الترجمة من الآداب القديمة التي شكلت مصدر نشاز للغة الأم، وأهميتها في نفس الوقت لتطوير اللغة والفكر، وخلص في النهاية إلى وحدة اللغة الإيطالية.

ولابراز الوحدة دخل في حوار مع قصائد الشاعر دانتي Dante مسلحاً بعلوم الإشتقاق والصرف والنحو، مبرزاً أصل المفردات المهجورة والجديدة، ونبه قراءه إلى الأصل القومي اللاتيني الروماني، وبذلك لن تكون روما نموذجاً سياسيا فحسب، بل ذاكرة وتراثاً لا يمكن تغافله في التطور والوحدة.

و - لنا أدلة أخرى تدحض غلو القراءات المنطلقة في الحكم على ماكيافيل من كتاب الأمير، جاعلة من ماكيافيل منظر الاستبداد دون غيره:

ان الأمير يفصل ويربط الأدب بالخطابات والتواريخ الفلورنسية،[15] فقد ألف متزامناً مع بعض القصائد والمسرحيات، وكان ماكيافيل قد انتهى من تأليف الجزء الأول من الخطابات قبل نشر الأمير، وما "فن الحرب" إلا التطوير الممكن لأسئلة "الأمير"، فأسئلة من قبيل: كيف يصل الأمير الإمارة؟ كيف يحافظ عليها؟ تنقلب في الخطابات إلى: «كيف يحافظ الشعب على الحكم؟ وكيف يصل إليه؟» وكيف يدافع الشعب والأمير عن الدولة ؟ وكيف يشكلان جيشاً قوياً؟ وما هي الحدود بين الملكية والجمهورية؟ بمعنى كيف ينقلب الحكم الجمهوري إلى حكم ملكي؟

---

15 - گوتيي ڤينال: "ماكيافيل"، دار بايوت، باريس، 1929 - 1930، ص: 190.

إلخ... إذن هناك سلسلة من الأسئلة ذات وجهين لا تختص بفلورنسا الجمهورية وإنما بإيطاليا الممزقة.

يجتمع هم الحفاظ على الجمهوريات والإمارات، سواء من خلال تحريض الشعب على التحرر أو من خلال الوحدة القومية أو من خلال الدعوة لأمير موحد كيفما كان أصله وكيفما كانت أخلاقه.[16]

ز - دون شك سنجد توتراً بين الوطنية والجهوية، لكن ماكيافيل إلتمس لنفسه العذر في كتاب "تواريخ فلورنسا" لما أشار إلى تواريخ جهوية أخرى، وأن تأريخه لفلورنسا لن يستثني فلورسنا وحدها بالتأريخ لأن الأحداث متداخلة بين الإمارات.

خلاصـــــات أولـــــية

يمكن أن نخلص من خلال ما تقدم إلى:

أولاً: دور التاريخ واللغة والجغرافية والذاكرة في توحيد إيطاليا.

ثانياً: الإنطلاق في قراءة الأمير بدء من الفصلين السادس والعشرون والخامس والعشرون.

ثالثاً: التركيز على نقد الكنيسة التي كانت في نظره سبباً في دمار إيطاليا، مع رفضه للنبلاء والسينوريين عامة.

رابعاً: تشجيعه للتجار والأبناك[17] .

ما هي القراءات التي تناولت ماكيافيل، وما هي خلفيتها؟

لكي نتبين جدوى القراءة التي ألمحنا إليها وجب التعرض لغيرها من القراءات، مع توضيح تهافتها واستحضار تجزيئها للأثر الماكيافيلي، وهي كالآتي:

17 - جاك هيرس: "ماكيافيل" دار فايارد، باريس، 1985، ص: 269 إلى 274.

18 - أنطونيو غرامشي : "ملاحظات حول ماكيافيل"، "دفاتر السجن"، غاليمار، باريس.

القراءات السجالية [18]

إذا ما استثنينا كتاب الملك فردريك الثاني، ملك بروسيا المعنون بـ"الرد على ماكيافيل" L'Anti-Machiavel المدافع عن الملكيات الوراثية لن نجد في مؤلفات الرد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وبداية القرن الثامن عشر إلا المدافعين عن الأمير الكنسي، سواء الكاثوليكي أو البروتستانتي أو اليسوعي أو الكلفاني، لكن الجامع بين فردريك الثاني وهؤلاء هو البعد الأخلاقي المجرد.[19] يجمع هؤلاء على غياب الأخلاق في "الأمير"، وهي إشكالية تعيدنا لأفلاطون: هل هناك علاقة بين الأخلاق والسياسة أو بعبارة أدق، بين الأوامر الأخلاقية والدينية والسياسية؟

لاحظ كثير من الباحثين أن مفهوم الغاية يحدد الإشكال ويلغي التناقض، وهو ما اصطلح عليه بداعي المصلحة العليا[20] التي تبرر كل شيء وتحدد السيادة بشكل دقيق، ومن تم جاز الكذب في نظر أفلاطون، والمكر والخيانة والغدر إلخ في نظر ماكيافيل. وتبقى ملاحظة أخيرة وهي أن القراءات السجالية تبرر "الذات" كمنطق للإيديولوجيا عامة، لذا اكتفى أصحابها بقراءة الأمير على مستوى النصوص وتجزيئ العمل كالقراءات الإستبدادية.

---

18 - يقول گيرودي في القرن الثامن عشر: «ظل إسم ماكيافيل يتردد على جميع الألسنة خفية ويإثم حينما يتعلق الأمر بالسياسة، أية سياسة ماكرة وإجرامية»، ويضيف: «لا نعرف ما إذا كان ماكيافيل ضحية احتقار تراجيدي أو أنه الثمن الفعلي لمشروعه الخبيث» لهذا السبب بالذات ميز كلود لوفور بين ماكيافيل والماكيافيلية على غرار جورج مونين، ونبه إلى:

أ - أن الماكيافيلية من إنتاج الخيال لأن القراء لهم أفكار أو تمثلات قبل قراءة ماكيافيل شأنهم في ذلك شأن الماركسيين مع ماركس ومن تم وجب القيام بقراءة سوسيولوجية للتمثل والفولكلور والمتخيل.

ب - أن الماكيافيلية منتوج الصراعات الدينية.

ج - أن الماكيافيلية ترمز للإلحاد والزندقة والهرطقة.

19 - فردريك الثاني: "الرد على ماكيافيل"، گارنيي فرير، باريس، مع تصحيحات ڤولتير.

20 - ميشيل سينيلار: "الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا"، دار P.U.F، باريس، 1989.

القراءات الوطنية والجمهورية

تجعل القراءة الوطنية من كتاب الأمير والمؤلفات الأخرى شهادة على صراع الطبقات في إيطاليا أو كما يقول فردريك نتشه في الأعمال الكاملة 1884 : «"إنه هواء إيطاليا الخالص"، لذا انطلقت من الفصلين الأخيرين لمؤلف الأمير، وتجاوز التناقضات الموجودة[21] في حين انطلق الجمهوريون في قراءاتهم كروسو واسبينوزا من نزعة ماكيافيل الجمهورية، ومن مفهوم الكتابة الماكيافيلي الذي ساد كتاب الأمير مع ظروف انهيار النظام الجمهوري، والسجن والعزلـة، ففي نظر هؤلاء ان كتاب الأميـر يتحدث إلى الشعب بطريقة ملتوية ومقنعة، يقـول ألفيـيـري Al Fieri: «ان حكم ماكيافيل اللاأخلاقية المعبرة عن الاستبداد تكشف بوضوح كبير للشعوب عن طموحات وجشع ومخاطر وفظاظة الأمراء أكثر من تعليمهم وتلقينهم دروساً في ذلك».[22]

القـــراءات الإستبـــداديـــة

تنطلق القراءات الإستبدادية من استقراء التجارب السياسية للحكام، مما جعلها تربط بين الإستبداد والماكيافيلية، بل جعلت من ماكيافيل منظر الإستبداد وأصله المطلق، أو تترصد الاستبداد من خلال الحكام مثل: سكس كنت وكاترين دوميدسيس و تايلرو وشارل كانت وهنري IV ومازران وريشليو ونابليون وبسمارك وهتلر وموسوليني وستالين إلخ...

ومن الملاحظ أن الاستبداد السياسي إلتصق دوماً بكتاب الأمير، ولنا أمثلة على ذلك في قراءة موسوليني للأمير، وفي كتاب ريمون آرون المعنون بـ"ماكيافيل والاستبداديات المعاصرة"، الذي حاول فيه توضيح علاقة الاستبداد بماكيافيل من خلال الفاشية والنازية والتاتولتارية.[23]

21 - جورج مونين: مرجع سابق، ص: 150، 151 إلى 169.

22 - نفس المرجع أعلاه، ص: 170.

23 - ريمون آرون: "ماكيافيل والاستبداديات المعاصرة"، دار فالوا، باريس، 1993.

إن الأمير - الكتاب في نظر هذه القراءة لا تاريخ له، يعتبر منهل التسلط وركيزة الحكم والتحكم، يقبل التجريب لأنه كتاب التجربة.

ماكيافيل وعلم السياسة

حينما وصلت البورجوازية للحكم بأوربا بدأت ترى إلى ماكيافيل كمؤرخ رسمي لفلورنسا، لكنها عملت على إحيائه عبر مستويات أخرى، بحيث كانت ترى فيه مؤسسا لعلم السياسة بالنظر لواقعيته الأرسطية المناقضة لأفلاطون، ولكل أفلاطونية في السياسة. وللتمييز بين الأخلاق والسياسة ومبدإ الاحتمال ورفض اليوتوبيا. اعتبر فراسيس فوكو ياما ماكيافيل «أباً للمفهوم الحديث للسياسة (...) ومحررها من الضغوطات الأخلاقية للفلسفة الكلاسيكية»، وأما فكره ففيه «وقاحة صريحة عن طبيعة السياسة التي لا ترحم، مثلا: من الأفضل أن يكون الإنسان مرهوباً على أن يكون محبوباً أو يجب أن لا نفي بوعدنا إلا إذا كان ذلك مهماً»،[24] وهي نفس رؤية الفيلسوف الأمريكي ليو ستروس.

ترفض هذه القراءة التمير بين النظرية والسياسة كعلم لها مبادئ وأسس، لأنها لا تعترف إلا بالسياسة لتردها لمفهوم اختباري.

ماكيافيل: نهاية أم حضور؟

1 - موقف جاك مارتان

تعرض مارتان لنهاية الماكيافيلية في إحدى النصوص المنشورة بإنجلترا خلال الحرب العالمية الثانية،[25] وقد عمل من خلال طرح الإشكال أعلاه على استعراض منطق الماكيافيلية، وتتمحور مقاربته حول:

24 - فرانسيس فوكو ياما: "نهاية التاريخ"، مركز الإنماء، بيروت، 1993.

25 - ريمون آرون: مرجع سابق.

أ - تنطلق المقاربة من الدفاع عن واقعية ماكيافيل التي صدمت الناس كثيراً، والتي لم تقبل لقوتها وسطوعها، لذا فإن ماكيافيل لم يبدع حسب مارتان أو يختلق شيئاً جديداً، كما لم يوجد المكر والعنف والدسيسة، ولم يتخيل أشياء لا وجود لها في حياة الناس والمجتمعات، وكل ما عمل على إبرازه يعرفه التاريخ ويألفه رجال السياسة، فقط أماط اللثام عن وجهها.

ب - تسائل المقاربة الثانية دور الدين في السياسة، وقد مال ماكيافيل إلى إستغلاله وتكييفه، وركز أشد تركيزاً على استقلالية السياسة عن كل دين في آخر التحليل أو المطاف لأن رجل الدولة لا دين له ولا ملة، همه الوحيد هو الحفاظ على السلطة والدفاع عنها.

ج - تنقسم الماكيافيلية في نظر مارتان إلى ماكيافيليتين، إحداهما مطلقة Machiavilisme Absolue ، من خصائصها الاستبداد والجور المطلق، لا ترحم الناس ولا تركن لأي مبدإ إنساني، همها التسلط وإخضاع الناس والدول، مثلها موسوليني وهتلر وستالين بامتياز. وثانيهما معتدلة تعتمد الدهاء والمكر والقانون الجائر، وهي أقل درجة من الأولى لأنها حاضرة في الأنظمة الغربية المعاصرة كأمريكا وانجلترا وفرنسا، وقد جسدها قديماً رشيليو الوزير الفرنسي ومازران خليفته وبسمارك زعيم الوحدة الألمانية، لكنه خلص إلى رفضهما معاً.

2 - موقف الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي

تعرض غرامشي بالدرس والتحليل لماكيافيل في كتاب "دفاتر السجن"،[26]ويرى في هذا الكتاب أن "الأمير" حي تتأسس فيه الإيديولوجية السياسية وعلم السياسة في شكل دراماتيكي، كما أن كتاب الأمير يجسد مذهباً عقلانياً مشخصاً في قائد مرتزق يرمز للإرادة الجماعية، وهي الدعوة الصريحة المتجددة لقيامه كي يلم شتات الشعب الإيطالي الممزق، وينظم الدولة، لذلك يرى غرامشي أن الأمير «لا يوجد وجوداً حقيقياً في الواقع

26- أنونيو غرامشي: مرجع سابق.

التاريخي (...) إنه تجريد مذهبي خالص لرئيس مرتزق مثالي»، تتعدد صفاته من خلال حكام متعددين عرفهم التاريخ، متقاربين أو متباعدين في الزمان والمكان ، متشابهين أو مختلفين في الصفات وأشكال الدولة ـ الحكومة... يحذر غرامشي قراءة ماكيافيل من :

أولاً: جعل ماكيافيل منطلقاً لفهم السياسة، فماكيافيل يعبر عن عصره بالضرورة والامكان، يظهر ذلك في طرحه للمسائل الكبرى للسياسة الإيطالية: خلق الدول، الحفاظ عليها، الدفاع عن الإمارات...

ثانياً: الإنطلاق من نزعته الجمهورية التي جعلته لم يكتب الأمير على طريقة المذكرات السرية أو كمرشد على شاكلة دليل مازران، فهو لم يستهدف أميراً محدداً، بل ألف الأمير للجميع، كان يتوخى منه تربية الأجيال، أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن التربية السياسية، ومن هذا المنطلق فإن ماكيافيل ابن عصره، ومؤلفاته تجسيد لفلسفة ذلك العصر الذي كان يرى إمكانية قيام ملكية مطلقة. لم يبلغ الأمر بكتاب الأمير إلى تغيير البنيات الوطنية الاجتماعية لتأسيس دولة جديدة، بل ظل مكتفياً بالوجه الإصلاحي البلاغي المرتبط في العمق بالأدب الإيطالي لروما القديمة رغم ما جدده في مفهوم السياسة والأسلوب الحركي.

3 – موقف الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو

حلل فوكو منطق الحكم[27] إنطلاقاً من عهد ماكيافيل في الغرب، مستعيناً بالحفريات والجنيالوجيا والابستمولوجيا وعلوم اللغة كاللسانيات، مركزاً على القطائع والإنفصال في تاريخ الفكر، الفكر السياسي الأوربي: هل قطع الغرب مع ماكيافيل؟

---

27 - ميشيل فوكو: "منطق الحكم"، ماغزين ليتيرير، رقم 269 ، شتنبر 1989، ترجمة الحسن اللحية، الملحق الثقافي لجريدة الإتحاد الإشتراكي، دجنبر، 1992.

يرى فوكو أن تعريف فن الحكم L'Art de gouverner كممارسة يرتد إلى الإقتصاد، لأن كل حكومة تتخذ نموذجاً إقتصادياً معيناً، كما نجد ذلك عند كيني ، وفي نصوص القرن السابع عشر.

تسعى كل حكومة، مهما كان شكلها، إلى انتزاع «حق ترتيب الأشياء» كالأرض والناس، سواء كانوا مستقرين أو رحالاً، متحكمة في علاقاتهم بالأرض، سواء كانت قاحلة أو خصبة، وفي علاقاتهم فيما بينهم، وفي علاقات الأرض بالأشياء، وفي العوارض كالأمراض والمجاعات والكوارث وغيرها، إنه التركيب المعقد للناس والأشياء والأرض، وذلك هو الدافع الذي تأسست من خلاله معارف وأنظمة للأمن والإستخبار والإقتصاد.

يقترح علينا فوكو ملاحظة ما يلي:

أولاً: إن أمير ماكيافيل وحيد في إمرته، وهو في الآن نفسه في وضعية خارجية ومتعالية بالنسبة لها، لذا فإن حكومته مطلقة تتنكر وتحارب كل تجربة ممكنة غير تجربتها، وهو ما ينصح به ماكيافيل أميره ليصير الأمير المطلق المتحكم في كل شيء كالقانون والقيادة الحربية والإقتصاد.

ثانياً: هناك أمير ثان - مضاد يتأسس مفهومه من خلال النصوص المهملة للقرنين السادس والسابع عشر، وهما نص تحت عنوان "المرآة السياسية المحتوية على مختلف أشكال الحكم" الصادر سنة 1555 لگيوم دو لابريير Guillaume de la Perrière ، الذي أكد فيه على تجارب أخرى للحكم موازية ومتعايشة مع تجربة حكم الأمير، كتجربة رب العائلة والمشرف على الدير والبيداغوجي والمعلم، مما يعني وجود تعدد في أشكال الحكم داخل دولة لأمير، ومن غير المستبعد تعارضها معه أو اقتداؤها به.

وأما النص الثاني فهو لفرانسوا دو لامونت لوڤايير François de la Mothe le Vayer المحدد لثلاثة أشكال من الحكومة، كالحكومة الذاتية الأخلاقية، وتدبير المنزل وسياسة الدولة، وهي تبيح الإستمرارية، يقول

فوكو: «كل من يريد حكم الدولة عليه أن يعرف كيف يقود نفسه بنفسه، ثم عليه أن يعرف تدبير منزله وممتلكاته ومجاله ليصل إلى حكم الدولة».

مقدمة ريموند نافس لكتاب
الرد على ماكيافيل

قبل دخول شارل Charles VII ملك فرنسا إلى إيطاليا، كانت السيادة في هذه البلدة موزعة بين ملك نابولي Naples والبابا والبندقية Venise ودوق Duc ميلانو وفلورنسا، وهي نفس الإمارات التي تحدث عنها ماكيافيل في الفصل XI من كتاب الأمير.

وفي الواقع فإن إيطاليا عرفت ميلاد العديد من الإمارات المحلية وموتها، وحتى لا نكتفي بتلك التي اقتصر عليها ماكيافيل في كتابه نتذكر هنا إمارة Ferrare وأسرة Bentinvogli وإقليم Urbin في عهد Guid'Ubaldo وإمارة Fermo وطاغيتها Olivertto وإمارة Sienne ودوقها Pandolphe Petrucci وإمارة Citta di Castello على عهد Nicolas Vitelli.

لكن التأثير السياسي الواقعي كان بيد خمس إمارات رئيسية ظلت حدودها متغيرة وأنظمتها متبدلة باستمرار، وقد شملت إيطاليا بثوراتها وتناقضاتها الدائمة.

1 ـ **البندقية** Venise : كانت البندقية إلى حدود 1494 جمهورية أرستقراطية، ظل يطبعها هذا الحكم مدة لا تقل عن أربعة قرون. وقد حكمها قاض أول Doge (تعود مؤسسته إلى ثماني قرون مضت) لا يحد سلطته إلا سلطة مجلس Conseil ، وفي العهد الحديث سلطة مجلس العشرة Conseil des Dix .

والملاحظ أن هذه الإمارة نعمت بالإستقرار الطويل من بين دويلات إيطاليا، ولربما أنها الأكثر قوة فيها. وقد شملت مساحتها الشمال الغربي لدولة ميلانو المتاخمة لألب النمسا، وعلى طول الأدرياتي وساحل الألمونت.

2 ـ **ميلانو** Milan : عرفت حركة كثيرة، وقد خضعت قديماً لحكم TORRIANI و VISCONTI ، وقد عرفت الجمهورية في سنة 1447 مع حكم Sforza وهو Sforza Ludovic le Maure الذي سمح لشارل VIII بدخول إيطاليا حتى يتخلص من ملك نابولي، وأقدم على اعتقال ابن أخيه Sforza Jean Galeas ، وقد تولى هذا الأخير الحكم بعد دخول شارل VIII إلى إيطاليا.

تعتبر ميلانو من بين الدول التي اغتصبت بالدسيسة، وبعد حين بالعادة.

3 ـ **فلورنسا** Florance : نجد في هذه الإمارة تطورا جمهوريا كاملاً مثيراً بالنسبة لروما مثلاً كما يرى Julien Luchaire في كتابة "الديمقراطية الإيطالية"، ط.1915، إنها جمهورية شريف روماني Patricien رغم اعتمادها حرف الأغلبية أي حرف الدهماء، وعلى حرف البورجوازية الغنية، وهو ما يفسر صراع هذه الفئات لمدة لا تقل عن قرن.

لقد حكمتها أسرة Albizzi مدة لا تقل عن خمسين سنة باسم الأرستقراطية مما جعلها تصارع الحركة الشعبية لـ Ciompi (الرفاق). وأبان Michel Lando عن قدرة الطبقة المحتقرة على التسيير، لكن أسرة الميدسيس Médicis هي التي أبعدتها عن الحكم نهائياً في 1421، وهو عهد جديد احترمت فيه الأشكال الجمهورية في عهد Cosme L'ancien و Laurent le Magnifique اللذان حافظا على اللقب التقليدي الروماني: حامي العدالة Gonfalonier de la justice.

ومع دخول القرن XVI دشنت فلورنسا لقباً جديداً اطلق عليه الدوق مع ألكسندر، ثم دوق توسكان وخلفائه حيث حوفظ عليه إلى 1736.

إبتداء من 1494 سيعرف تاريخ فلورنسا بداية ارتكاس الجمهوريين حيث لعب هنا ماكيافيل دوراً كبيراً في هذا الوسط. فقد حاول الأبيزيون منذ عشر سنوات الإطاحة بأسرة المدسيس لكن دون جدوى، ولما وصل بيير الثاني الحكم سلم لشارل VIII الأماكن الجمهورية لكنه خلع هو الآخر..

امتدت فلورنسا على جميع أراضي توسكان، وعلى الخصوص بعد نهزام Pise ، الخصم المنافس والعنيد، وقد استقلت Pise عن فلورنسا ولم تخطع لها ثانية إلا في 1509.

4 ـ **روما** Roma : تقلص نفوذ روما بعد ما كان قوياً خلال القرن XI و XIII، أي خلال مرحلة 24 ، لكنها عرفت فيما بعد محاولة Rienzi لتأسيس إمارة لائكية لكنه خسر المحاولة بتهوره وتسرعه ولم يهدأ إلاّ في 1449 حيث كانت السلطة الزمنية ضعيفة وظهور أعداء بين أسرة Colonna و Orsini، ولما اختير Alexandre VI Borgia تغير وجه الكنيسة وصار الوارث Saint-Pierre أميرا غازياً

5 ـ **نابولي** Napoli : لم يستقر حالها على حال، فهي مرة على الشاطئ والسواحل تفرض سيطرتها على صقلية، ومرة تراها فريسة للأجانب، مرة للنورمانديين ومرة لـ Hobenstanffen، وأخرى لدوق Anjou (1266 - 1435)، وللملوك أرغون. ففي 1494 لما كانت صقلية خاضعة لفرناند الأرغوني مباشرة كان يحكم نابولي اللقيط من جده فرناند الأول. ونشير إلى أن شارل VIII قد طالب من دوق أنجو الحق في الارث لغزو نابولي، وفعلاً سمح له ملك أرغون بذلك نظراً لائتلاف البابا وميلانو والبندقية والامبراطور Maximilien.

مقدمة فولتير

أعتقد أنني أسديت خدمة للناس لما نشرت مؤلّف "دراسة نقدية حول ماكيافيل" Essais critique sur Machiavel. وأما مؤلف الكتاب فهو من النفوس الطيبة التي جادت بها السماء لتحمل الناس على الخير والفضيلة، لقد انطلق في عمله هذا من مبادئه وشخصيته لذلك كتب ما أملاه عليه ضميره منذ سنين خلت، إنه شاب رغب تعاطي الحكمة عاملاً على تقديم دروسه لنفسه أولاً، ومن أجل ذلك نرى أن دروسه تستحق أن تكون موعظة للآخرين كالملوك مثلاً حتى تكون مصدراً للسعادة والخير العام.

لقد حصل لي الشرف لما بعث لي نسخة من مخطوطه هذا، وسيكون من اللازم استئذانه في نشره حتى تواجه دروسه هذه سموم ماكيافيل المنتشرة اليوم بين الناس كثيراً بحيث من واجبنا نحن أن نقي الناس منها، وللحفاظ كذلك على هذا العمل وصيانته من كل تشويه نظراً للنسخ العديدة الرائجة بين الناس عمدت إلى تنقيح هذه النسخة وتصحيحها متمنياً تقيّد الناشرين بها، كما أبشر الفرنسيين بأن المؤلّف يمتلك لغة فرنسية جيدة وأسلوباً سلساً حيوياً يثير الدهشة والإعجاب خاصة وأن صاحب الكتاب لم يسبق له أن زار فرنسا ولو مرة واحدة.

تتميز لغة فردريك الثاني عن لغة أميلو دو لاهوساي AMELOT DE LA HOUSSAYE [1] المساهم ا في الرد، وأما فيما يخصني فإن المؤلف في

1 - أميلو دو هوساي AMELOT DE LA HOUSSAYE ، ترجم الأعمال الكاملة لماكيافيل سنة 1664 للفرنسية، وقد اعتمد فردريك الثاني ترجمة لاهوساي بالرغم من التراجم السابقة كترجمة جيهان شاري سنة 1546 وجاك گوهوري بين 1544 و 1571 وغيرهم كبريون 1577 وغيوم كابيل في 1553.

نظري قد نجح في مقصده، ومهما تكن جنسيته إسبانية أو انجليزية أو إيطاليا فإن الأهم هو مضمون العمل لذلك أعتقد أنه فعل خيراً، وقد أبقيت أثناء مراجعتي للمخطوط على أساليب المؤلف كما هي حتى ألتزم الأمانة، وأرى أن المؤلف في مجمله يقوّم سلوكنا ولغتنا، فهو لا يتناول ماكيافيل وبالتحديد كتاب الأمير خطوة خطوة انطلاقاً من القضايا التي تطرحها فصول كتاب الأمير، بل يكتفي برد عام، ولهذا السبب أطلقت على الكتاب عنوان "دراسة نقدية لماكيافيل".

لقد توقف مؤلفنا في الإجابة عن ماكيافيل إجابة شافية، وهو بذلك قد حفزني لأعقّب على تقولات أميلو دو لاهوساي، فقد أراد هذا الأخير تسويد سياسة ما، وأؤكد قولي هذا بشرحه لمراد ماكيافيل والعمل على استحضار أقوال مجزأة استهدف اقناع الناس بها، فقد أورد مفهوم داعي المصلحة العليا La Raison d'Etat [2] في مقدمة رسالته الوعظية، واننا لنرى بأسف شديد إلى الإنسان الذي اشتغل بالسفارة، هذا الإنسان الذي يمتلك الطموح للإبتعاد عن الفقر مما يجعلني متشككاً في المعنى الذي يعطيه لداعي المصلحة العليا، كما أنه استشهد بجيست لبس Joost Lips [3] ذلك الورع المتدين الجاهل لأمور السياسة والمعرفة، وعليه اندفعت دون أن أدري لإبداء بعض الملاحظات:

1 ـ كان جيست لبس يرمي دائماً لهلاك البشرية،

2 ـ نلاحظ أن الناس يتعلمون عكس ما يراد عادة بالورع والتدين،

3 ـ لقد نشأ ليس على الكاثوليكية وانقلب إلى اللوترية ثم إلى الكلڤانية وبعدها عاد لديانته الأولى، وقد يظهر من خلال تقلباته هذه بعده عن الدين رغم انتقاداته الشعرية للقديس Saint-Pierre

2 - هناك نصوص متعددة ترجع إلى القرن الثاني عشر ميلادي تحدد هذا المفهوم، ولعله في

3 - نظرنا يرادف مفهوم السيادة في العصور الوسطى وبداية النهضة الأوربية، وقد عمل ميشل سينلار Michel Senellart على توسيع هذه الرؤية وتوضيح مراد المفهوم في كتابه الجيد المعنون بـ "النزعة الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا"، دار P.U.F، 1989.

جيست لبس Joost Lips 1547 - 1606، فيلسوف صاحب نزعة ايقورية.

4 - تتناقض أقوال ماكيافيل مع افتراءات أميلو دو لاهوساي كما هو الحال في الصفحة التاسعة من طبعة Plantin حيث يقول مثلاً: «يقود ماكيافيل أميره إلى كنيسة الفضيلة والسعادة!، ويحثه على اتباع كل ما هو ضروري ومستقيم للوصول إلى الشرف recta Utinam principem suum duscisset ad templum virtutis et honoris»، لقد تغاضى أميلو دو لاهوساي عن هذه الأقوال منخرطاً في عادة عصره المجزأة للأقوال والمزورة للمراد وإن كان ذلك افتراء ووشاية، كما اجتهد ليجعل ماكيافيل إنساناً ورعاً بالرغم من أنه الإنسان الذي يقدم دروساً في الإجرام والنذالة، وقد رأى فيه هو إنساناً تقياً وصالحاً.

لا تغير مزاعم المترجم أي شيء من تصور قراء ماكيافيل المستأجر للرهبان الفرنسيسكانيين واليعقوبيين، وإن استهدف في واقع الأمر دروساً يقدمها للأمراء مشحونة بالخبث والمكر الذي لا يعرف بدونهما: هل نعمل بأقوال Mirivits و Cartouche و Jacques Clement أو Ravaillac القائلين بأحاسيس ماكيافيل المرهفة تجاه الدين[4] ؟ وهل يكفينا اللجوء دائماً لستار نحجب به الرؤية عن الجريمة؟

يقول مترجم "الأمير" بأن سيزار بورجيا[5] César Borgia أفضل نموذج للأمراء الجدد المغتصبين للإمارة[6] ، وهو النموذج الأمثل لأسرة الميدسيس[7]

4 - Louis Dominique Cartouche، رئيس عصابة لصوص عاش بين 1693 و 1721، وهو فرنسي الأصل.
Jacque Clément دومينكاني فرنسي قتل هنري III عاش ما بين 1567 و 1600.
François Ravaillac قديس فرنسي اغتال هنري IV مات سنة 1610.
سيزار بورجيا: عائلة بورجيا تعود إلى أصل إسباني رحلت إلى إيطاليا، ومن أفرادها البابا ألكسندر VI وابنه سيزار (1475 - 1507) الذي عمل دوقاً وقاض عام للكنيسة، تحدث عنه ماكيافيل كثيراً في كتاب الأمير بل جعله نموذج الأمير في إيطاليا المنقسمة إلى دويلات وإمارات كثيرة، وهو نموذج الدهاء والمكر والفطنة والغلظة.

6 - يحدد ماكيافيل الطرق الموصلة للحكم في كتاب الأمير، ولذلك كان عنوان الكتاب في الأصل "في الإمارات" لكنه اشتهر بـ "الأمير".

7 - الميدسيس Medicis أسرة حكمت فلورنسا على عهد ماكيافيل، اتسم حكمها بالميل للنظام الجمهوري، واشتغل عندها ماكيافيل في الكتابة والقضاء والجيش والسفارة، وإلى أحد أمرائها أهدى كتاب "الأمير" وهو لورو دو ميدسيس Laurent de Medicis.

الجديدة في فلورنسا، رغم جهلنا المقصود لما حصل للألكسندر VI ابن الزنا، هذا البائس الحقير الذي لا يستحق منا أي انتباه. وأخيراً، لقد رأى أميلو دو لاهوساي أن ماكيافيل من مبغضي الإستبداد الذي يكرهه الجميع، لأنه من المفيد كرهه واستبعاده من كل تعليم...

ڤولتير في 12 أكتوبر 1740 بلاهاي

مقدمة الملك فردريك الثاني

سلك ماكيافيل نفس الطريق التي سلكها بنوا آسبينوزا Benoit Spinoza [1] في مادة الأخلاق، بحيث قوض هذا لأخير أسسه وهي صيغة أو كيفية تنحو نحو قلب الديانة في مجملها؛ وأما فيما يخص الأول فقد أفسد السياسة ودمّر مبادئ الأخلاق الصحيحة، فإذا اعتبرنا أخطاء اسبينوزا من النظر والاعتبار فإن أخطاء ماكيافيل من الممارسة وإليها وحدها تعود.

لقد أصاب الذعر التيولوجيين من اسبينوزا بحيث سارعوا إلى دق ناقوس الخطر لما تهافتوا على نقض مؤلفه كلياً مؤكدين على وجوب الألوهية ضد تهجماته الإلحادية، في حين تصدى الأخلاقيون لماكيافيل لكنه استمر رغم انتقادتهم لسياسته المتوحشة إلى وقتنا هذا.

انتدبت نفسي للدفاع عن الإنسانية ضد وحش يبتغي تخريبها وتدمير وجودها، وقد وجهت في هذا المؤلف تفكيري كله ضد سمومه إذ ذيلت كل فصل من فصوله بملاحظاتي حتى تعقب سمه القاتل، وانهمكت في الدفاع عن الرأي القائل بأن مؤلف ماكيافيل خطير كغيره من المؤلفات

---

1 - اسبينوزا Baruch Spinoza : فيلسوف هولندي من امستردام، ازداد سنة 1632 ومات بلاهاي 1677، طرد من الجماعة اليهودية سنة 1656، وصار صانعاً، عانى مطاردة السلطة لما نشر كتابه الأول "مبادئ فلسفة ديكارت - 1663" وبعده نشر كتابه الشهير Tractatus théologico-politicus سنة 1670. وقد ظهرت مؤلفاته الأخرى بعد موته مثل: Ethique و Traité de la réforme de l'entendement و Traité politique.

الخطيرة الرائجة اليوم في العالم وقد تصادفه أيادي الأمراء وأصحاب الميولات السياسة، وبما أنه من الصعب جداً، ومن الخطير أيضاً على كل إنسان شاب طموح ناشئ تمييز الجيد من الرديء بالإضافة إلى أنه من غير المستحيل استلهامه لأقواله والعمل بها خاصة وأن الكتاب يناقض الأخلاق. فإذا كان من الصحيح أن المؤلف لم يتمكن من تضليل العالم كله فإنه قد أثر ويؤثر على الأمراء الذين هم على أهبة لمباشرة حكم الشعوب وإدارة العدالة فيها، وبما أن هؤلاء قدوة رعاياهم بطبيعتهم وبنبلهم وبشفقتهم فهم لذلك صورة حية للألوهية، وهم أيضاً لا يستحقون الملك إلا لعظمتهم وقوتهم وليس لقيمة شخصيتهم.

تحمل الفياضانات كل ما تجده بطريقها فيصير كل شيء حطاماً أو رماداً مع نار الرعد إن أصابت المدن، وبما أن السم قاتل فهو أهون من الأخلاق الفاسدة والإنفعالات الجامحة للملوك، بحيث إذا رغبوا الخير تكون لهم السلطة لتنفيذه بعكس الشر الذي ينطلقون فيه من أنفسهم.

توجد الشعوب في وضعية مخزية لما تخشى كل هفوة أو خطأ يقوم به الحاكم، فلما تكون ممتلكات الناس تحت تصرفه وتخضع راحتهم لهواه وطموحه، وأمنهم لخيانته، وحياتهم لقسوته يمّحي وجودهم ويزول، وفي هذا المشهد المظلم نعثر على امبراطور وحشي تمنّى ماكيافيل تحقيقه وتنصيبه؛ فمن حسن الطالع لم يتسرب سمه هذا للعرش، ولم يتماه أحد بنموذجه سيزار بورجيا Cézar Borgia الذي يكفي ذكره ليجعل مؤلفه مؤلفاً مقيتاً.

والظاهر أن التاريخ عرف أشخاصاً كماكيافيل تهافتوا على إسداء النصح للأمراء حول ما ينبغي فعله وما يجب تركه، وكم يغرينا هذا الفكر بمظاهر حقيقته وسطوعه الخاطئ فنضطر لترديده ولو مرة واحدة.

اسمحوا لي أن أدافع عن الأمراء ضد من يفتري عليهم مستبعدا أؤلئك الذين يرغبون في خدمة الصالح العام، وأخص بردي هذا كل من

تفضل بمزاعم تضلل الأمراء عارضاً عليهم بعض الأمثلة التي تخص تاريخ إيطاليا وأمرائها الصغار المعاصرين لماكيافيل، وبعض المستبدين المطبقين لمبادئه السياسية.

عرفت جميع المجتمعات البشرية السيء والخسيس من الخير من الناس، وهي صورة مكبرة للعائلات التي يعيش بين أفرادها الصالح والآحذب والأعراج، ونفس الصورة تطال الأمراء حيث يوجد بينهم الوحش المفترس الذي لا يستحق حمل هذا الإسم.

وبما أن العرش أمانة ليس من المعجز إيجاد أمير صالح ، ويكفي أن نتذكر الظلم الموجود في Caligulas [2] و Titus و Trajan [3] و Antonins [4]، وهو ظلم يهدف إلى تحقيق نظام يخدم الحاشية ، وقد احتفظ التاريخ بأخبار الأمراء ، أخيارهم وأشرارهم، لكننا نتغافل هذا الجانب عن بلادة ولو أن أخبارهم تحيى في ذاكرة الناس.

وأخيراً، نلاحظ أن ماكيافيل يخلط المدارس السياسية، ويكره الإختلاف الحاصل بينها، وسنرى في هذا الكتاب، فيما بعد، أن السياسية الحقيقية للملوك تتأسس على العدل والحلم، كما تختلف عن كل سياسة تستند للترقيع واستحسان الرعب والخيانة التي يعرضها علينا ماكيافيل في كتابه "الأمير" بسفاهة كبيرة.

2 - ماركوس أولبيوس تريانوس Marcus Ulpius Traianus : إيطالي الأصل ازداد سنة 53 ميلادية وكان امبراطوراً رومانياً حكم روما بين 98 و117، وقد ورث الحكم عن نرفا Nerva، حارب البارتيين Les Parthes وبذلك اتسعت رقعة الإمبراطورية شرقاً وشمالاً في اتجاه أرمينيا.

3 - كاليگولا : امبراطور روماني حكم من 31 إلى 41 م، هو إبن Germanicus، أصيب بجنون مما جعله طاغية متسلطاً.

4 - أنتونينس Antonins هو لقب أطلق على سبعة أباطرة هم: نرفا Nerva وترخان Trajan وأدريان Hadrien وأنتونين Antonin ومارك أرويل Mar-aurèl وڤروس Verus وكومود Commode. وكانت مدة حكم هؤلاء من 96 إلى 192م.

البـــــاب الأول

لما نريد محاولة التفكير بجدية في الكون يكون من اللازم علينا تحديد طبيعة الموضوع المفكر فيه بدقة، ثم استهداف أصول الأشياء ثانياً لكي تتأتى لنا المعرفة بالمبادئ في يسر وسهولة كبيرين مع اقتصاد في المجهود لتحصيل النتائج.

لقد رام ماكيافيل تحليل أصل الأمراء عوض الوقوف عند الإختلاف المميز لطبيعة الإمارات، قاصداً مصادر سلطانهم ومبيناً في الآن نفسه الأسباب التي تدفعهم للإلتزام حتى يصيروا أسياداً. من غير الممكن ولا اللائق أو المفيد اللجوء لكتاب نتذرع فيه بقناع نفعي قائم على الجريمة والإستبداد، مبرهنين من خلاله عن الإستمرارية والدوام وإن أمكن الخلود أيضاً.

وإنه لحظ سيء يلاحق ماكيافيل حين نجد الشعوب منذ غابر الأزمان قد أوجدت لنفسها خلال فترات الحرب والسلم حكاماً يحافظون على استمراريتها كما ينظرون في الخلاف الحاصل بينها، ويحمون الشعوب من بطش الأعداء مقومين للنزوعات الفردية من أجل الصالح العام. ولكي يتحقق هذا المبتغى اختارت من بين أفرادها أحكمهم وأعدلهم، المنصفين الشجعان بغاية قيادتها وحمل مشاقها في جميع الأمور.

يحدد العدل الهدف الرئيسي للملوك، وذلك بجعل مصالح الشعوب أولى اهتمامهم والنتجية النهائية لهذا المسلك هي تلازم المصالح العليا مع

سعادة الشعوب زيادة ونقصانا؛ لنتساءل الآن: إلى أين تؤول أفكار الرفعة والمجد والعظمة والطموح والإستبداد؟

الحاصل مما تقدم الكلام فيه أن العاهل بعيد عن القيادة المطلقة للشعوب وليس من أمره إلا كمن يرغب في قضاء حاجاته هو، وأما الشعب فقد صار أداة تسعده وتشهد على انتصاراته.

لقد حاول ماكيافيل إبراز الخزي والتناقضات الجوهرية الموجودة في السياسة متغافلاً تناقض كتاباته مع الأخلاق، كأنها النسق الديكارتي بالنسبة لنيوتن، فالمصلحة تقوم بكل شيء كزوبعة ديكارت، وأخلاق سياسته الساقطة شأنها شأن الأفكار الفلسفية الطائشة، والخلاصة أن هذه الوقاحة لا تعادلها أخرى مادام يسهر على تعليمها للناس ويحثهم على ارتكاب الجرائم السياسية البشعة؛ هناك من اعتقد في أقواله وآمن بها منطلقاً من طريقة تفكيره وظنونه الجائرة البشعة، بحيث اعتقد أنها تقدم له المشروعية والذرائع لتحقيق الطموح، وهكذا صارت حكمته السياسية غاية وهدفاً، وآلت صحبتها الرعية إلى عبيد لا يحدون من إرادته، الأمر الذي يجعل الرعية كالخرفان أو القطعان عامة تعود صوفها وحليبها لضرورة ما إلى صاحبها كما يمتلك حق ذبحها متى أراد ذلك.

وبما أنني أخذت على نفسي عهد الرد على نتائج سياسته المغلوطة الضارة للبشرية فقد احتفظت بالرد حسب كل فصل لما أجد الفرصة مواتية لذلك، وأما ما يمكنني الآن توضيحه بخصوص أصل الملكيات المغتصبة Usurpateur التي ترادف عندنا العنف فهو السعي لارتكاب المخالفات في نظر الشعوب، فعوض أن يكون الملوك حماة الشعب يقبل مع الاغتصاب الخضوع لطموحهم. فإذا أخذنا في المقارنة بين الملوك والشعوب سنلاحظ أن الشعوب تضحي بكل شيء بينما يلهث الملوك وراء غرائزهم ونزواتهم الإستبدادية، والحال أن هناك طرقاً مشروعة للوصول للإمارة وهي:

1 ـ إما أن يكون الوصول إليها بالوراثة،

2 ـ إما أن يتم بالإختيار (بمعنى الإنتخاب) الشعبي حين تكون للشعب السلطة في ذلك،

3 - لما تقوم حرب تفتح الباب لقيام إمارات على حساب العدو.

وأحذر القارئ ألا ينسى هذه الملاحظات المتعلقة بالفصل الأول لأنها مدار ملاحظاتي الآتية.

البـــاب الثاني

يحترم الناس احتراماً كبيراً كل ما ينتمي للماضي، حتى وإن عاد في العمق للأسطورة والفؤول، فحين يلتقي حق الإرث مع سلطة الماضي ينعدم الرق والإستعباد، وقد جعلني هذا الأمر مندفعاً لنقض مزاعم ماكيافيل الرائجة اليوم بين الناس والمتمثلة في تشككهم في قيادة الملكيات الوراثية. ينعم هؤلاء الورثة بالحصن والحصانة نظراً لما يشدهم من روابط حميمية إلى الأسر الغنية في الدول، كما أن السواد الأعظم من الناس يدينون لخيراتهم ونعمهم عليهم، وهي ظاهرة تجعلهم يتعلقون بالأمير مما لا يترك لهم الفرصة للتخلي عنه إلا إذا فرضت الظروف ذلك.

ستكون من الآن الجيوش والأسلحة والأمراء في خدمة السلام، والحروب علامة على أمن الدولة على الرغم من أنها لحمة طموح الجيران أو لنقل هي سيوف عارية أغمدتها يد الآخرين.

ليس للأمير مهارة عادية Di ordinaria industria أو فطنة مألوفة Habileté ordinaire ، لكن له أمنية تنتهي مع إسعاد شعبه، فالشعب السعيد لا يحلم بالثورة على الأمير لأنه يخاف ضياع قوته، ولذلك لن يثور الهلنديون على إسبانيا، فإذا كان الإستبداد الإسباني نقمة على الإسبانيين فالهلنديون في دعة ورخاء.

تمر إمارات كصقلية ونابولي من الإسبان إلى الأباطرة، ومن الأباطرة إلى الإسبان، وفي كل مرة ينجح الغزو لأن الشعوب في هذه الإمارات

تطمح دائما للمخلص. فما الفرق بين اللورانين والنابوليين؟ لما اضطر اللورانيون لتغيير الهيمنة انغمس الناس في البكاء متأسفين على عهد الدوقات DUCS المسيطرين عليهم منذ قرون طويلة تضاهي سلطتهم سلطة الملوك، والملاحظ أن ذاكرة الدوق LEOPARD حاضرة عند اللورانين؛ فلما اضطرت أرملته لمغادرة Lunéville [1] وقف الشعب أمام موكبها باكياً مولولاً.

1 - Lunéville : مدينة فرنسية تقع على مسافة لا بأس بها من باريس، لعبت دوراً كبيراً في الصراع الفرنسي الإيطالي.

الباب الثالث

عرف القرن الخامس عشر ميلاد الفنون، وقد ساهم لورو دو ميدسيس Laurent de Medicis في إحيائها بعناية كبيرة[1]، لكننا نرى أنها كانت ضعيفة في عهد ماكياڤيل رغم استعادتها لعافيتها ويقظتها، كما يمكن أن نسجل تقدم الفكر الفلسفي العقلاني [2] والهندسة العقلانية.

---

1 - لورو دو مدسيس Laurent de Médicis من عائلة آل مدسيس، وهي عائلة فلورنسية اهتمت بالتجارة والأبناك، حكمت فلورنسا ابتداء من 1434، وفي سنة 1532 بدأ حكامها يلقبون بالدوق، ومن أهم أفرادها الذين حكموا فلورنسا نجد:
- كوزم القديم أو العريق Cosme l'ancien حكم ابتداء من 1434.
- لورو الأول Laurent 1er (1469 - 1492)، كان مهتما بالفنون والتراث القديم، كما اشتهر بنظم الشعر، وجسد نموذج النهضة.
- جوليان Julien كان دوقاً لاقليم Nemours ، ونصب في ذلك المنصب من قبل الملك الفرنسي فرنسوا الأول، وحكم فلورنسا من 1478 إلى 1516، ولولاه لما ضاع الحكم من أسرته سنة 1512، رغم أنه استرجعه بمساعدة الإسبان والكنيسة من قبضة الراهب الدومنيكاني ساڤونارول Savonarole.
- لرو الثاني Laurent II دوق Urbino حكم بعد جوليان إلى 1519 وهو أب كاترين دو مدسيس Catherine de Medicis التي اشتهرت كثيراً بمكرها في التاريخ الفرنسي، وهي التي أدخلت كتاب الأمير لماكياڤيل إلى فرنسا بعد أن تزوجت أحد ملوكها.
- ألكسندر الأول Alexandre I مات سنة 1537 مقتولاً من قبل كوزان لورنزو، وهو أول دوق على فلورنسا.
- كوزوم الأول Cosme I مات سنة 1574 كان دوقاً على توسكان.
- فرناند الأول Ferdinand I دوق توسكان من 1587 إلى 1609.
- فردناند الثاني Ferdinand II حكم فلورنسا من 1610 إلى 1670، وكان دوقاً على توسكان 1621 - 1670.
- جون غاستون Jean-gaston حكم فلورنسا من 1671 إلى 1737، وبعده مباشرة انتقل إقليم توسكان إلى :Larraine
* دوق Duc من أصل لاتيني Dux و Ducis وتعني الرئيس ولها معان متعددة:
- عامل مقاطعة
- لقب ملتصق بالنبالة بعد الأمير
- حاكم في معنى متعدد مرتبط بالسياسة والتسيير
فيما يخص المثقفين في العصر الوسيط وبداية عصر النهضة، راجع:
Jacque le Goff : Les intellectuels au moyen age, Ed. Seuil

فتن العلماء أنذاك بالاكتشافات[3]، وأغوتهم انتصارات الغزاة الباهرة. يكون من العدل أن نحتاج لإنسانية مكتشفة لا غازية لأن المجنون هو الذي يشجع الغزو لما يستسلم للإنفعال، ونتيجة ذلك هي الفوضى وإبادة العدد الكثير من الناس. إننا نطيع العدالة ونكره كل ما يمكن أن يترتب عن القيم العسكرية أو كل ما يمكن أن يصيب الإنسانية من جهة خارجة عن إرادتها؛ وقد أراد ماكيافيل أن يقول بأنه من الطبيعي جداً بأن يتمنى الإنسان القيام بتوسعات وغزوات لتأكيد انتصاراته، ونحن نرد على نيته هذه بقولنا: انه لمن الطبيعي جداً أن يتمنى الإنسان الحفاظ على ممتلكاته بطرق مشروعة، وأما الميول والرغبات فإنها تسكن النفوس الخسيسة دون غيرها، كما لا يستساغ الإغتناء على حساب الآخرين بسهولة كبيرة حين نستحضر فكرة الإنسان الفاضل ونريد تقدير الجميع لنا.

يمارس سياسة ماكيافيل كل شخص سلاب مغتصب وحيد في حكم البشر، بحيث ستكون الصورة النهائية لمثل هذه العلاقة بين المغتصب والشعب متوثرة إذ كلما رغب طرف في الإغتناء عن طريق الغزو والإستلاء رغب الطرف الآخر في الثأر لنفسه، وهي صورة سوداوية غامض مصير أهلها.

يستهدف ماكيافيل من خلال دروسه إقامة أمير على أنقاض السابقين، يأتي بطموح وقوة بغاية القيادة والحكم؛ تجدني في هذا الباب متسائلا عن الحيثيات التي تدفع إنساناً ما لارتقاء سدة الحكم، كما أتساءل عن الفضيلة التي تدفعه لإشهار سيفه في وجه الآخرين، وكيف يتمكن من الشهرة رغم مآسيه الكثيرة؟

تنخدع الشعوب كثيراً لما ترى في الغزو ثراء للدول الغازية، لأنها تتوهم سعادة وهمية، وبما أن الأمير أصل الغزو والتوسع إن كان ظالماً

3 - أشار ماكيافيل إلى أثر الكشوفات الجغرافية، وذلك بعد تغيير الطرق التجارية، حيث فقدت إيطاليا دور الوسيط مما أثر على تجارتها. وأكد ذلك المؤرخ المعاصر لماكيافيل غيشارديني في كتابه "تحذير سياسي".

فطموحه لن يقف عند هذا الحد نظراً لدوافعه وجشعه ورغباته الذاتية التي يمقتها الجميع، وعلى عكس هؤلاء نجد صنفاً من الأمراء أخضعوا إمارات بعطاياهم وكرمهم دون معرفة أحوالها، وهي غزوات خيالية إن صح التعبير لا تتطلب إلا قليلاً من الواقعية لتحقيقها عملياً، والواقع أن العالم لا ينسى التفقير والتيئيس الصادر عن نزوات فرد يستحق أن يجهله العالم، وسنفترض الآن تبعاً لرغبة ماكيافيل خضوع الكون كله لسلطان أمير واحد، فماذا سيحدث إذن؟ وهل يستطيع قيادته وحكمه جيداً؟

مهما كانت قدرة هذا المتجبر فهي محدودة بالضرورة، كما يستعصي عليه التعرف على أرجاء الكرة الأرضية كلها وزيارة الأماكن البعيدة، ولذلك لا يستحق أن يحمل العالم اسمه وأن يشيد على يديه. إن ما يضاعف من عظمة الإمارة في رأينا هي الفدادين والمساحات الشاسعة لأنها تمنح الأمير الإحترام. وقد يستحق الغازي، على أية حال، الثناء بالنظر إلى قدرته وتجربته وفن قيادته للعقول، لكن لا ينبغي أن نجعل من كل طموح مبعثاً للخبث.

صحيح أن الإنسان لا يحصل على النصر إلا إذا استخدم مواهبه، وإن صار غازياً لضرورة ما علينا إحترام الأبطال إذ يشبهون الأطباء الجراحين فالبرغم من عملياتهم الوحشية يبعدون الناس عن الأخطار ويؤجلون موتهم، وأما إذا عمدوا إليها برغبة ذاتية فنحن نكرههم ولن نقترب منهم على الإطلاق.

على البشر ألا يفكر بمصالحه الذاتية، فإن سار العالم على هذه الطريقة لن يحصل اجتماع بشري. إذن، عوض التخلي عن الإمتيازات الشخصية للصالح العام تكون التضحية بالعام في سبيل الخاص، فلم لا نجعل الجميع مساهما في تناغم المجتمع بخلقه لقوة رادعة للجميع؟

توجد معادلة تهم الناس جميعاً، مفادها أنه إذا كنا لا نريد من يضر بنا فعلينا نحن أيضاً أن لا نلحق الضرر بالآخرين، إنه مبدأ يمنعنا من الإستيلاء على ممتلكات الآخرين بغاية إرضاء دولتنا وأنفسنا، ومن ناحية

أخرى يتعمم خطأ أورده ماكيافيل يتعلق بالغزاة في عهده رغم أنه بعيد التحقق نسبياً، ويظهر جليا لما رام الحديث عن كيفية المحافظة على الإمارات المهزومة، وقد كان يرمي من خلال هذا الخطأ إلى محو العرق الملكي الحاكم قبل وقت الغزو؛ هل يمكننا أن نقرأ القواعد التي سنها ماكيافيل دون ارتجاف أو خوف أو كره وسخط؟

يضع ماكيافيل كل شيء في دناءة واضحة حتى وإن كان مقدساً ومحترماً، فقد قلب جميع القوانين المحترمة وفتح الباب أمام جميع أشكال العنف والجرائم مفضلاً القتل والتعذيب، مستحسنا الخيانة والإجرام، إنه لواقع يرفضه الجميع لذا عجبت غاية العجب كيف سمح الحكام بنشر سياسته الشنيعة هذه، وكيف سمح العالم كله لهذا الإجرام الدنيء بقلب حقوق التملك والأمن ومقدسات الناس الجليلة كالقوانين والإنسانية الصادقة؟!

يشاع السم كثيراً لما نسمح بالحق في طموح الإستيلاء، لأنه فيض من الجرائم والقساوة والوحشية يصيب البشرية كلها، وإذا تشبع الأمير بهذه السياسية تصير الملكيات امبراطوريات وكأنها غابة مليئة بالوحوش حيث النمر هو المشرع الأول والأساسي كما يرغب ماكيافيل. تسير بنا هذه السياسة نحو الهلاك والدمار، يقول ماكيافيل: «على الأمير أن يقيم في مستعمراته الجديدة»، وهي النصيحة الثانية التي نصح بها الغزاة الجدد.

وقد لا يبدو الأمر كما في الحالة الأولى قاسياً ومخزياً مادام الأمراء الكبار لا يغادرون عواصمهم إلا عندما تكون حديثة العهد، ويرغبون في تفقد الجهات البعيدة.

تقول الحكمة الثالثة من حكم ماكيافيل: «على الأمير أن يقيم جاليات لاستتباب الأمن في المستعمرات الجديدة حتى يتمكن من ضمان الوفاء والإخلاص». يستلهم ماكيافيل هنا سياسة الرومان، لكنه لم يضف جديدا اللهم تلك الأمثلة الجائرة التي رغب تعليمها للآخرين، وقد وجدت نفسي

متسائلاً لما قرأت أمثلته هذه عن الحق الذي يجعلنا نطرد الناس من منازلهم وأراضيهم؟

يرى ماكيافيل أن الفقراء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وهي حجة واهية تفيد تكريس الأمر الواقع: أنتم الأقوياء والآخرون ضعفاء لذا وجب القضاء عليكم دون حسرة ولا تردد؛ يالها من حجة! وياله من خزي!

حسب هذا الطرح لا وجود إلا للخوف، بل هو الكفيل وحده للإبقاء على الولاء، الضامن لارتكاب الجرائم: أي حق ندعيه يدفع المرء منا ليمتلك سلطة مطلقة على أمثاله، ويعطيه الصلاحية لينظم حياة الأفراد وخيراتهم وتفقير من يشاء منهم؟ يظهر الإستعمار هنا بجلاء كبير وكأن المجتمعات لم تجتمع إلا من أجل المحافظة على الجرائم والدناءة، وأخيراً هل يمكننا أن نقول بأن المجتمعات أو الكون قد وضع من أجل إرضاء حمق وجهل مستبد غير طبيعي؟ من جهتي لا أعتقد أن العقلاء من الناس يدعون نفس الدواعي وإن كانوا من المتطرفين لأن الحس الإنساني سرعان ما يستيقظ فيهم يوماً وتشتعل أنواره، ومن غير المعقول كذلك بأن يقدم أمير على الشرور دون مبرر لأن رعاياه لا يملكون حق معاقبته بكيفية مسبقة. ومثل هذا الأمير لن تمحو الصواعق اسمه لوروده بين الأسماء المرعبة للإنسانية جمعاء، ويكفي هؤلاء جميعاً كره رعاياهم لهم، وهو العقاب الأمثل في نظرنا لهم ولأمثالهم.

ما هذه الحكمة القائلة بارتكاب الجرائم كاملة إلى حد الإبادة والإستئصال؟

تكون إبادة شعب كامل أو على الأقل قتل عدد كبير منه بغاية الإستعباد، ويستحسن المستبدون في هذا الباب الرغبة في الرعب والطغيان مع نزع الممتلكات وقتل الملوك. ما أشنع هذه الفقرات! وبما أنني بصدد الرد على ماكيافيل أحيل القارئ على الفصل الخامس من كتابي هذا، وأما الآن فإننا سنعالج أمر المستعمرات التي ركز عليها ماكيافيل كثيراً؛ فهل كانت فكرته عن ذلك صائبة أم غير عادلة في وجودها ككل؟ وهل تعرف

المستعمرات حالياً مستوطنات قوية أم لا؟ إذا كانت المستعمرات خاضعة خضوعاً مطلقاً يعني ذلك تهجيراً للسكان من بلدانهم الأصلية وتشجيع الهجرة إليها حتى يحصل السكان على رعايا جدد. يسبب هذا الأمر خطراً للأمراء في نظرنا، لأن قوة الأمراء تقاس بعدد الطائعين طواعية لا بارسال جاليات ضعيفة لا تستطيع تأمين نفسها مقارنة مع السكان الأصليين، ومن الأفضل أن نبعث في ذلك بجماعة تتوفر فيها مكارم الأخلاق محترمة للسكان، وأن تكون إقامتها بعيدة عن المدن التي وطد فيها المستعمر جالياته.

لقد عرف التاريخ الغربي اختلافاً كبيراً في شأن الجاليات منذ زمن ماكيافيل إلى وقتنا هذا، وقد عمل الأمراء على تسريح المجندين لأنهم رأوا فيهم جماعة لصوص تعيش على العنف والنهب والسلب، غير محبة للسلام إلا في الثكنات مما يحبب إليهم الإباحية والفسق، ولمعالجة هذه الوضعية المخزية نرى ضرورة التمتع بالليونة واللباقة بحيث وحدهما يجنباننا الشنآن والشجار والشقاق، يقول ماكيافيل: «على الأمير أن يستقطب الأمراء الصغار لصفه حامياً لهم، وعاملاً على نشر التفرقة بينهم في نفس الآن، مساعداً لمن يراه تابعاً له»، يشكل هذا القول الحكمة الرابعة من حكمه السياسية، ولا تصلح في نظرنا إلا للأمير الذي يعتقد أن الكون وضع من أجله وحده دون سواه.

وهكذا نستنتج إذن، أن الإحتيال والمكر متكرر في مؤلف ماكيافيل كالطاعون، فنحن نرى أن الرجل المستقيم الأخلاق يتدخل للمصالحة وإنهاء النزاع بين الأمراء، يردع خلافهم ويسوي مشاكلهم، وهي القوة التي تجعله أباً لجيرانه بحمايته لهم وثأره ممن أراد التنكيل بهم.

هناك لحظات يخون فيها الحظ بعض الأمراء فيدفعون بغيرهم إلى حد تلويث سمعتهم، وقد حدث ذلك لأميرين في وقتنا الراهن، كان الأمير الأول شارل Charles XII [4] الذي عمل على تنصيب السيد Stanislas على

4 - شارل Charles XII ملك السويد (1697 - 1718)، ابن شارل XI انتصر على ملك الدانمارك بكوبنهاگن في 1700، وكتب عنه ڤولتير كتاباً تحت عنون "تاريخ شارل XII سنة 1731.

عرش بولونيا، وأما الأمير الثاني فهو أكثر قرباً منا. إن ما نستخلصه من هذه الأمثلة هو أن الإغتصاب لا يستحق الثناء والمديح، وان القتل مكروه بين الناس دائما، وكل من شجع عليه لا يريد سوى إستمالة العقول فقط.

لا يستعصي تبرير الجرائم كيفما كانت، وكل أمير ينحو منحى ماكيافيل يتأتى له ذلك، وهو بذلك يستحق منا الشفقة واللوم؛ وقد أكدت في هذا الفصل أن الأمراء ولدوا من أجل العدالة، وبهم وحدهم تتحقق العظمة وإذا زغنا عن هذه الطريق نستحق الجزاء حمقاً.

5 - استانسلاس Stanislas اسقف بولوني توفي سنة 1072، قتل من طرق الملك Boleslas الثاني.

البـــاب الـرابـــع

لا طريق في معرفة الأمم إلا المقارنة بينها، وقد بين ماكياڤيل في كتابه الإختلاف الحاصل بين الأتراك والفرنسيين، إذ وقف عند اختلاف العادات والأخلاق والرؤى، واستهدف في الآن نفسه الأسباب التي تجعل غزو الإمبراطورية العثمانية صعباً في البداية لكنه غير ذلك لما يتأتى للغازي، بينما يكون سهلا لمن أراد غزو فرنسا، لكن المحافظة عليها صعبة نظراً لثوراتها الدائمة، وبعد ذلك صرف ماكياڤيل نظره إلى كيفية تشكل الحكومات، وترآى له أن قوة الإمبراطورية العثمانية والفرس Persan تتأسس على العبودية مما يفيد رغبته في الإستبداد المطلق لأنه الدرع الواقي من العصيان والتمرد، والضامن للوحدة ضد العدو في نظره.

لقذ ساد في فرنسا على عهد الكبار* Les grands، الأسياد* Les nobles أمراء صغار يتقاسمون السلطة مع أميرها من بعض الوجوه، وقد

* الكبار Les grands تطلق على:
- النبلاء
- على من لهم تأثير على الأحداث
- فئة الإقطاعيين في أنماط الإنتاج القديمة

* النبلاء Les nobles، من الأصل اللاتيني Nobilis، وهو من ينتمي لفئة اجتماعية مالكة إما بالإرث والعرق أو بقرار الحاكم، وله امتيازات وحظوة.

** السينور Seigneur من أصل لاتيني Signum، وتطلق في القانون الروماني على Signateur ومعنى الكلمة - المفهوم معقد جدا لتداخله مع مفاهيم الإقطاعي والنبيل. لذا ننصح القارئ بالعودة إلى مراجعة:
J.P. Poly et E. Bournazel: La mutation féodale X.XII, Presse Universitaire de France, Paris, 1980.

يقوي هذا النفوذ الشقاق والأحزاب كما يمكنه أن يتسبب في الثورات، ونحن نتساءل إنطلاقاً من هذه الوضعية التي توجد عليها فرنسا: هل الأمير الفرنسي مستقل أم لا؟ وأما الأمير التركي الذي ورد ذكره آنفاً فقد كان محاطاً بجيوش انكشارية Janissaires في الوقت الذي كان فيه الملوك الفرنسيون يهلكهم رجال الدين والرهبان Les Moines. لقد استهوى ماكيافيل الحديث عن الثورات العامة كحالات خاصة بالتخمين، لكنه سرعان ما أن عاد إلى السياسة وحدها (...) فهل أدركتهم ما غاب عن الفيلسوف؟

يكتسب الناس اختلافاتهم من بيئتهم وتربيتهم وتغديتهم وطرق عيشهم وتفكيرهم، ونرى أن هذه المعطيات صالحة لتمييز وحشية الامريكي عن تحضر الصيني، ومزاج الإنجليزي وأحاسيسه ووسوسته بالكبرياء عن الإسباني، وقد يشبه الفرنسي إنطلاقاً مما سبق إلى حد ما الهلندي حيوية وهدوء في الطبع، في حين أن الذهن الشرقي منغمس في تقاليد قديمة جداً تعمل على توحيد شعوب هذه المنطقة.

تختلف ديانة الشرق عن ديانات الأوروبيين كثيراً، بحيث تقف ديانة الأول في وجه الخونة والراغبين في الإطاحة بملوكهم، كما يتصدى الشرق لكل محاولة تفسد دينه، فهو يكره الملذات ويتصدى للغزاة، وأخيراً فإن طرق تفكيره تساهم كثيراً في ترسيخ الملكية.

والحاصل أن طرق تفكير الفرنسيين مختلفة عن المسلمين، فالأوائل يسمحون بقليل أو بكثير بقيام الثورات أو لنقل أنهم محبون لجنون التغيير، وهي سمة من سماتهم وخاصية تميزهم عن غيرهم من الأمم، فالتبدل مقرب إليهم، ولأجله يوجدون في حزن دائم وفسق عام، لهم ميل مهول اتجاه كل جديد، يطلبونه في أمورهم الجادة والحاسمة، ولذلك أقول بأن الكاردينالات Cardinales [1] الذين حكموها استوحوا ماكيافيل من خلال

---

1 - كاردينال Cardinal، ممثل البابا ومستشاره

تقديرهم لفرنسا واحتقارهم لها، يبتغون محاصرة كبارها ومعرفة عبقريتها حتى إذا ما عصفوا برياح ما استجاب لهم القدر وتغير عرش الملك. أراد رشيليو[2] تحطيم الكبار وتدعيم سلطة الملك ليتمكن من إقامة الإستبداد، وقد نجح في مهمته بالنظر للمؤامرة والتكالب على الملك، وتابع مازران Mazarin [3] سياسة رشيليو حيث نجح في الإستيلاء على البرلمان -برلمان القدامى- الذي اعتبر دائماً سلطة مهمة في البلاد، ومن الملاحظ أن نفس السياسة التي أدت بالرجلين إلى الإستبداد علمتهما كيف يستخفان بتقلب الأحوال والتنقيص من الأمة الفرنسية، لذا فإننا نرى في فرنسا تعدد الأباطيل والتوافه واللذائذ التي تعمل في أذهان الفرنسيين.

تشبه حالة فرنسا هذه ما قام به الأمبراطور أو القيصر Cézar المستنجد بجيوش الآخرين لقمع الناقمين داخلياً، في عهد Les valois وتحديدا أيام العصبة المضادة لهنري Henri IV [4]، هذا الأخير الذي نكلت به زمرة من الفرنسيين المتلهفة لكل ما يناسب الذوق واحتقار القديم مجازفة بكل ما تضعه اليوم وإن كان الزواج مثلاً.

---

2 - رشيليو Richelieu، اسمه الكامل هو Armand Jean du Plessis de Richelieu، رجل دولة في فرنسا (1585 - 1642)، وأسقف Luçon سنة 1606 لعب دورا بارزاً في الصراع مع النبلاء، اتسم عصره بالحركية وعقد الأحلاف مع النمسا والحرب ضد اسبانيا (1635) وقام باصلاحات داخلية في الإقتصاد والجيش... كما وضع اللبنات الأولى للإستعمار الفرنسي في كندا والسينغال ومدغشقر.

3 - مازران Mazarin هو جيل مازران Jules Mazarin من أصل إيطالي (1602 - 1661) كان قائدا للجيش الحبري، وديبلوماسيا، عاصر رشيليو وحاوره سنة 1630، أخذ الجنسية الفرنسية سنة 1639، وبعد أن حصل على منصب الكاردينال من قبل رشيليو صار وزيراً، كان وراء إنهاء حرب الثلاثين سنة بعقد معاهدة Westphalie سنة 1648. عزل مدة قصيرة عن مهامه ثم عاد ثانية سنة 1653 ليدخل في حلف الراين ضد النمسا واقترح على إسبانيا معاهدة Pyrénées في 1659. له مؤلفات سياسية مهمة نذكر المترجم منها:
دليل الرجل السياسي، ترجمة د. خضر خضر، منشورات جورس برس، الطبعة الأولى، سنة 1992.

* Valois منطقة فرنسية على يسار L'oise وقد غزا سكانها فرنسا بين 1328 و1589.

4 - هنري Henri IV ملك انجلترا (1399 - 1413) صارع ثورات Les Gallois بين 1400 و1408.

تمتلك فرنسا عددا من الجنود والقلاع Forteresses، ومع ذلك فهي تعاني الإستقرار. في توالي الأمراء، فإن كانت الآن في منآى عن الثورات الداخلية وغزو الجيران لها فليس ذلك علامة على استقرارها التام. كما يمكن أن نعتقد بأن الوزير الفرنسي إن صادف حكم ماكيافيل السياسية لن يظل على حاله، لربما سيهرع فوراً لوضعها في محك الإختبار والتجريب دون تردد لحظة واحدة، ليظهر حذقه وذكاءه، ويستحسن أن ننهي حديثنا حتى لا نقول الحماقات كما كان يقول رجل دين من Colignac.

الباب الخامس

تقول حكمة مأثورة: «إن الإنسان حيوان عاقل له رجلان لكنه بدون ريش»، لقد علمتنا المدرسة هذا القول المأثور، ويبدو أنه قاعدة صحيحة بالنسبة للسواد الأعظم من الناس، لكنها قاعدة خاطئة بالنسبة للبعض كالقلة المتفكرة والمختلفة في تفكيرها عن السواد الأعظم من الناس بشأن مواضيع كثيرة. من السهل أن ندعي بأن الإنسان حيوان عاقل مدرك ومركب للأفكار، ومن المحتمل أن تنطبق هذه الرؤية صوريا على الجميع رغم عدم التمييز بين الحكيم والتافه العامي من الناس، وبين العاقل والجاهل، بين صديق الإنسانية وعدوها كأسقف Cambrai من إستبدادية فلورنسا.

ادعى ماكيافيل تشبثه بالعقل، لكنه غيب وضعه الخاص، وحاول بادعائه جاهداً اقتراح ثلاث وسائل للحفاظ على الدولة حتى تكون حرة ولو أن أميرها مغتصب للإمارة، وهي: الوسيلة الأولى غير مضمونة، والثانية تحتاج أميراً ناقماً أما الثالثة فهي أقل ضرراً منهما ودون عوائق.

لما يتم غزو جمهورية ما؟ ولِما نضع الناس في حمام من النار؟ ولِما يصير الأحرار عبيداً كذلك؟ يحدث ذلك على ما أعتقد من أجل إظهار الجبروت والظلم والفساد، وإخضاع كل شيء لمظالم الأمير وسلطانه، وهي أفكار شنيعة تخرب الكون إذا وجدت مشايعيها، وذلك هو دليلنا على عداء ماكيافيل للأخلاق الحميدة ولرزانة الحاكم. يقول في هذا الباب: «نضمن حرية الدول بالغزو وفرض الضرائب، وبإقامة سلطة تستند على

عدد قليل من الناس يحافظون على مصالح الأمير»، يريد صاحبنا من حكمته هذه تحقيق ضمانة للأمير، ونحن نرى أنه من غير المعقول بأن تظل زمرة من الناس عائقاً في جمهورية ما، وفية للأمير الجديد، لكنها دون شك تترقب الفرصة المناسبة للثورة عليه. ويقول كذلك في موضع آخر: «إن الوسيلة المثلى للمحافظة على الإمارة هي محق أهلها»، يريد بقوله هذا قمع كل انتفاضة، والحد من النوايا خشية تحققها.

ينتاب الإنجليز شعوراً بجنون الإنتحار، لقد وجدت منذ سنوات خلت ورقة فوق طاولة بلندن برر فيها أحدهم نذالته ولذلك شفي من مرضه، فلا يمكن أن نستحضر أية إنسانية حين نشرع في الحديث عن غول كماكيافيل، لأن ذكره يدنس القيم كلها، وإذا ما أردنا مقارنته بغيره فهو لا يعادل إلا نفسه دون استحضار الدين أو الأخلاق في مقارنتنا، فوحشية الرجل بادية في مؤلفه وكأنه إله سياسة الجريمة.

ربما قد يرد راد منكم بقوله أن ماكيافيل كان يتوخى من أميره المخرب للإمارة الجديدة تأكيد تملكه لها، لكن هل لكم أن تجيبوا عن غاية الغزو نفسها؟ ستردون دون شك أن الأمير السفاك يريد تعزيز قوته، وقد توقعت ذلك لأن منطق الحكم عند ماكيافيل يقوم على القتل والتبديد أثناء الغزوات معوضاً عن الخسائر بالتسلط، فلم لا تفكرون على نحو آخر: إن الدولة أو الدول المدمرة المسلوبة الخالية من السكان والمدن لا تشكل دولة بل تصلح فقط للتملك والغزو؟!

لا أدعي مثلكم أن الأمراء الذين يحكمون صحاري شاسعة مثل ليبيا أو برقة Barca يرهبون عدوهم أو أن مليونا من النمور والأسد والتماسيح يعادل مليونا من البشر بمدن غنية وموانئ نشيطة وصناعاً مهرة، وكل السمات الدالة على وجود دولة آهلة بالسكان.

وربما لهذا الأمر دون سواه يرى الجميع أن قوة الدولة بسكانها لا بمساحتها، وحتى نتبين الأمر في وضوح علينا بالمقارنة بين هولندا وروسيا:

ان هولندا جمهورية صغيرة المساحة، حيث تمتد على ثمانية وأربعين فرسخاً وعرضها يقوم على نحو الأربعين، وهي جزر ممتدة على المحيط، آهلة بالسكان، تتواجد بها فئة من الصناع المهرة.

لقد أخضعت إسبانيا الملكية القوية في أوربا، وتجارتها بدأت الآن تغزو المناطق البعيدة جداً، ولها القدرة الكاملة للمحافظة على قوتها العسكرية دون التطرق لأسطولها البحري، وأما روسيا فإنها تشغل حدود الكون، بل يخيل إليك أنها الكون نفسه، تتاخم التتار والهند والبحر الأسود وهنغاريا وأوربا، وتمتد كذلك إلى بولونيا وليتوانيا وكورلاندا، وتحدها السويد شمالاً، وتعادل مساحتها الإجمالية ثلاثمائة ألف مرة مساحة ألمانيا عرضاً وطولاً، وأما فلاحتها فإنها تقوم على المواد الغذائية، ولا تتجاوز ساكنتها خمسة عشر مليونا من السكان، وقد بدأت تعرف الآن في الأوساط الأوربية بعد سنوات الوحشية، ورغم ذلك فإنها ضعيفة الإقتصاد مقارنة بهولندا، والعساكر البرية والبحرية.

نستنتج مما سبق قوله أن قوة الدولة لا تكمن في امتداد المساحة وحيازة الصحاري، بل في الثروة وعدد السكان، لذلك نقول أنه من مصلحة الأمير أن يسعى للعمارة لا للتخريب، وعليه فإننا ننصح قارئ ماكيافيل بالتفكير عوض تطبيق سياسته.

يقول ماكيافيل في الحكمة الثالثة: «على الأمير أن يقيم في الإمارة المستعمرة الجديدة». تبدو لي حكمة مقبولة ولطيفة، وقد تطرقت إلى ما يمكن أن ينتج عن هذا الفعل في الباب الثالث من كتابي هذا.

اذا أرغم الأمير على خوض معركة ـ حرب معقولة ومقبولة أنصحه بترك الإمارة حرة والإكتفاء بفرض العقاب، وهي خصلة لا يتسم بها إلا العدد القليل، أما الباقي من الأمراء فلا تحدوهم إلا الرغبة في التملك وذلك ما يفسر بجلاء بناء القلاع في الأماكن الحيوية.

هل افتقدنا كل معنى، بحيث أننا نريد كل شيء كما لو كانت الدنيا لنا وحدنا، ولنا الوقت الكافي للقيام بذلك أو أننا خارج دائرة الفناء؟ لا

أعتقد ذلك، فالوقت يمر كالسيف فما جدوى عملنا إذا كان الخلق جاحداً بأعمالنا؟

البـــاب الســادس

سنسامح ماكيافيل إن لم تكن للناس أهواء مختلفة وإذا لم يقدم لهم آلهة نارية تسلب كل ما هو علوي، واضعة في محله إنساناً آلياً لا يحس بأي شيء، عاجزاً عن مراقبتهم. ومادام للناس أهواء فهم سعداء إن لطفنا بهم، وأما إذا أهملت أمورهم يسعون دائماً للأذى والضرر.

من بين الأحاسيس المستبدة بنفوسنا تلك التي لا ترضي الطموحات الشاردة الساعية إلى تعطيل النوع البشري بدافع الشر، ويظهر أن مثل هذه التأملات التي يفيض بها الكتاب والتي تناقض عصرنا أيما تناقض؛ وليس لها مكان في المستقبل كذلك؛ فمثل هذه الأحاسيس الضارة التي يقول بها كتاب الأمير لا يرضيها شيء ولا يشبع طموحاتها لا ستفاضة حقدها ومرارتها اتجاه البشرية.

إذا زاد الطموح عن اللازم أصبح جنوناً بالنظر إلى العناد والشراهة، وأما إذا كان الشرف والطموح يوفران الغذاء في المقاطعات والممالك فمن السهل تحمل هذا العبء خير من غزو البلدان لأن الخواص هم الذين يستفيدون من الإستعمار أكثر من الأمراء. ترغب العقول الطائشة المتهورة في القلاقل وتصدع العالم، وهي أذهان مشتعلة دائماً بالحقد ، لذا وجب إطفاؤها بعناية شديدة حتى لا يشتد حريقها.

تتسم حكم ماكيافيل بالخطورة الكبيرة، لذلك لا يمكن الأخذ بها دون احتياط وتبصر، فقد قدم صاحبنا أمثلة عديدة عن الأمراء كموسى

Moïse وكورش Cyrus [1] وروميلوس Romulus [2] وتيزيThésée [3] وهييرو Hiero[4] ، ومن غير المستبعد أن نضيف لهذه القائمة أسماء أخرى من جماعات وطوائف وملل كالنبي محمد Mohamet وDe Guillaume Penn، ولنستسمح الياسوعيات من البراغواي إن أضفت أسمائهن لهذه القائمة مادامت إنتصاراتهن قد تضعهن في مصاف هؤلاء الأبطال.

والملاحظ أن ماكيافيل قد استغل هذه الأسماء بخبث كبير جداً، مما يجعلنا نجتهد لنزع هذه الأسماء من قوائمه لما نكشف عن غاياته السيئة منها، وحيله السافلة المضللة. تقضي العوائد الحميدة التي تميز الإنسان النزيه عن غيره بتقديم الموضوع في كليته لا من منظور ضيق ووفق وجهة نظر مشحونة حتى يتضح للقارئ كل شيء وإن خالفت الحقيقة دعواه، وهو ما لم يلتزم به صاحبنا الذي أفرد الكلام عن الأيام الجميلة وكأن كلامه كالوجه المزخرف الذي لا يظهره صاحبه إلا ليلاً على ضوء الشمعة وإذا طلعت

---

1 - موسى Moïse: اسمه بالعبرية Moché، مشرع ومحرر الإسرائليين في القرن XIII قبل الميلاد، يقدمه الكتاب المقدس كشخص كارزماتي، ولد بمصر وأخرج أتباعه منها.

* كورش Cyrus :

كورش الثاني، مات سنة 530 ق.م، كان ملكا على الفرس بين 556 و530 ق.م، وهو ابن Cambyse I، ثار على ملك Les Mèdes سنة 550 ق.م، قامت ديانته على التسامح وسمح لليهود بالدخول إلى القدس.

وأما إبنه Cyrus الصغير فقد حكم بين 424 و401 ق.م، مات على رأس جنود مرتزقة في معركة Counaxa التي جمعته بأخيه Artaxerxès.

2 - روميلوس Romulus : هو المؤسس "الأسطوري" لروما في 753 ق.م، وهو ملكها الأول، راجع ما كتبه عنه المؤرخ الروماني بلوتارك.

* روميلوس أوغستلوس: هو آخر إمبراطور روماني (475 - 476 ق.م).

3 - تيزي Thesée: ملك أثيني كان له الفضل في جمع الشعوب والقبائل اليونانية، طرد Les Argonautes وتحارب مع Les Amazones وضد Les Centaures.

4 - هيرو الأول Hieron: طاغية سرقوسة (478 - 466 ق.م)، حارب القرطاجنيين في صقلية.

* هيرو الثاني (306 - 215): ملك سرقوسة، كان حاضراً أثناء الحرب البونيقية الأولى.

* Masaniello: جماعة أو قبيلة من نابولي، ترأسها Tommaso Aniello من 1620 إلى 1647 لمواجهة الإسبان.

الشمس يعرف كيف يخفيه جيداً، كما استفاض في الحديث عن أهل الطموح أي: أولئك الذين كان لهم القدر المناسب أو الثروة المالية، دون أن يغفل ضحايا الإنفعالات. لقد استهدف من أمثلته مغالطة الناس ومجانبة الصواب، وهو أمر يدفعنا لتقبل كلامه بالجحود؛ لم تغافل على سبيل المثال أبطالا آخرين كالهادي ومشرع اليهود ومحرر اليونان والغزاة الميديين ومؤسس روما، بل تغافل رجالا آخرين أخطأوا الحظ وأخطأهم الحظ؟

إذا اعترضنا على حظ موسى سنورد سوء الطالع الذي أصاب شعوب الگوط الأولى التي خربت الإمبراطورية الرومانية، كما تمكن المقارنة بين جهود روميلوس المنحدر من *Masaniello وإقدام سكان نابولي، بينما صادفت طموحات هيرو الناجحة عقاب Wallenstien ، وكان إلى جانب العرش الدامي لكرومويل Cromwell[5] عرش مهزوم بطريقة رائعة في Blois.*

يترآى لي أن ماكيافيل قد جمع بين كورش وتيزي من جهة وموسى وروميلوس من جهة أخرى دون تبصر وبصيرة:

5 - كورمويل Cromwell :
- أوليفيي كرومو يل livier Cromwell : رجل دولة انجليزي، ظل يدافع عن الملكية خلال الحرب المدنية (1642 - 1646) وسرعان ما انقلب ضدها في نفس الحرب، حيث هزم جيوشها في معركة Moor سنة 1644 و Naseby سنة 1645. إزداد سنة 1599 ومات بلندن سنة 1658 صار عدواً لشارل الأول ابتداء من سنة 1648 وأصدر حكماً عن طريق البرلمان على الملك بالموت سنة 1649. حملت الدول الإنجليزية إسم Commonwealth حين أقام ديكتاتورية عسكرية، كما أخضع بالقوة إيرلندا IRELAND و l'Ecosse في (1652 - 1651). حارب الإمارات المتحدة من سنة 1652 إلى 1654. كان يتقاسم السلطة مع مجلس الدولة، وابتداء من سنة 1655 سعى لإقامة ملكية في انجلترا حيث ورث إبنه رشار Richard الحكم لكنه تخلى عنه سنة 1659.
- توماس كرومويل Thomas Cromwell : ولد بـ Putney سنة 1485 ومات بلندن سنة 1540. كان سكريتراً لهنري VIII ابتداء من سنة 1534، واعتبر مبدع الإصلاح في المملكة.

* Blois: منطقة فرنسية تقع على بعد 177 كلم من الجنوب الغربي لباريس، وتبلغ مساحتها 51549 هكتاراً.

هل أوحي لموسى أم لا؟ إذا لم يوح له فالظاهر أنه رئيس عصابة من لصوص أو أنه مخاتل يخادع الناس ويوهمهم بنبوءته كالشعراء.

كان موسى رجلاً فطناً لأنه استطاع أن يقود الشعب اليهودي مدة لا تقل عن أربعين سنة، والظاهر أنه لم يكن محترماً بما فيه الكفاية بالرغم من أنه سرق الأضواء والشهرة، لهذه العوامل فهو أقل مرتبة من روميلوس وتيزي والأبطال الآخرين. وأما إذا أوحي إليه فهو ذات مجبورة ومكلفة، لكنها أقل شأناً من مؤسس الإمبراطورية الرومانية وملك الفرس وأبطال اليونان الذين اعتمدوا على قوتهم وقيمهم فيما اعتمد موسى المساعدة الإلهية.

علينا إلتزام الحذر دون تكهن أو إدعاء عبقرية ما خارقة أو شجاعة وهمية حينما نود المقارنة بين الرجال الذين تكلمنا عنهم سابقاً، ففيما يخصني تجدني حائراً فيما إذا كان يليق بهم المدح أم الذم؟!

ومن جهة ثانية، يتمتع قطاع الطرق بالنباهة والذكاء، والمميز لأحدهم عن الآخر هو السطو على الأموال، بحيث أن الذي يسطو على أكبر عدد يكتسب الشهرة، وأما إذا وجد معتدل وخائف بينهم فهو دنيء في نظرهم، وتكون المقارنة بين دنيئهم وشجيعهم مرهونة بجني ثمار القتل والبطش لأن الدنيء مؤهل للتنكيل به في يوم ما.

لا نستطيع الحكم على الأشياء إذا انبهرنا بها، فما نحبه في شيء نكرهه في غيره، ونفس الحكم هذا يطال القتلة الذين يراهنون على الشهرة المساوية لإزهاق الأرواح والبطش بالناس؛ فمهما دافعنا عن تدخل القدر في العالم وفي أحداثه فهناك عوائق تمنع ارتكاب الجرائم والفضائع، وإن أردنا البرهنة على ذلك لجأنا على الفور لافتراض قائد عسكري على رأس جيش يدافع عن حرمة الدين، فالمحارب عادة لا يحارب إلا بحجج in Ferio و in barbara، هل من الممكن اعتبار هذه الحجج علامة أو سمة تَسِم الديانة عامة، بحيث أن الديانة المسيحية ارتكزت على حجج واهية وغير معقولة، ولم تنتشر ككل ديانة في أوربا إلا بالحروب والقتل؟ فإذا كان الجواب بالنفي فهل معنى ذلك أن الديانات قد انتشرت بيسر؟

يمكن أن نلاحظ في هذا الباب التعصب الديني الذي لعب دوراً كبيراً، ولعل ماكيافيل نفسه قد تحدث عن مرحلة دقيقة في هذا الصدد، ويبقى لنا الآن أن نشير إلى أن ييرو Hieron السراقوسي قد استنجد بالآخرين، فلما حقق هذا الأخير انتصارات عديدة ربط علاقات متعددة مع جند غيره حيث أقلقت سياسته هذه ماكيافيل كثيراً، وقد رأى فيه ناكراً لمعروف أصدقائه الأوائل، كما خطأه لفقدان الثقة في الجنود الجدد.

تدفعني هذه الخلاصات لترك مجال التأويل للقارئ، فالمبغضون المجانيون والمحبون للصداقة لا يستكنون لهذه الإدعاءات الصادرة عن غير هدى صاحبها، لذا أحذر القارئ من اختلاف المعنى الذي قد يضمنه ماكيافيل لكلامه هذا، وهو لم يخطئ حينما قال: «بدون فرصة تتلاشى الفضيلة»، ويعني كلامه أن المجرم بدون ظروف مناسبة، ودون حيل ومخاطر لن يستطيع الكشف عن قدراته.

وأخيراً يظهر لي بصفة عامة، حتى نختتم هذا الفصل، أن الحالات أو الظروف الخاصة التي يمكن أن يظهر خلالها الرجل قدراته دون جرائم هي أن يولد أميراً منصباً أو حين يرفض الشعب أميراً من أجل حريته.

البـــاب الســـابـــع

يتعذر على أي مؤلف إخفاء نواياه لما يناقش موضوعات كثيرة ومتنوعة لأن ما يستضمره ينفلت منه إكراهاً حتى ولو كان في حالة من التعقل والرزانة، وعليه فمن غير المستحيل بأن نجد طريقة في المقارنة بين "أمير" السيد فنلو Fénélon [1] و"أمير" ماكيافيل.

يجسد "أمير" السيد فنلو الصراحة والتعقل والحلم والعدل والإنصاف وجميع الخصال الحميدة، وهي مجمل الصفات التي نقول بها عادة لإختبار الحكومات في العالم، بينما يجسد "أمير" الثاني النذالة والخيانة والغدر وجميع الجرائم، إنه وحش تعجز جهنم عن خلق نظير له، فإذا كانت طبائعنا من الملائكة فهي بلا شك تميل نحو "أمير" فنلو، وإن كان العكس فإنها ستميل نحو الشيطان و"أمير" ماكيافيل.

---

1 - فنلو François de Salignac de la Mothe Fénélon : كاتب فرنسي، من أهم مؤلفاته:

- حكايات نثرية
- حوارات الأموات، نشرت سنة 1712
- مغامرات تلماك (1699)، وهو مؤلف ينتقد فيه سياسة لويس XIV، اتهم من قبل الكنيسة ومات في كومباي سنة 1715، وأثناء عزلته ألف كتابين مهمين في السياسة والنقد وهما:

-L'examen de conscience d'un Roi.

-Lettre sur les occupations de l'académie Française.

يستلهم ماكيافيل شخصيتا الدوق Valentinois [2] و César Borgia[3] في كتابه نموذجاً لأميره، وقد اعتمدهما في نصائحه الموجهة لأصدقائه وللجنود، ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى شخصية سيزار بورجيا والتعريف بها بشيء من التدقيق كي تكتمل الصورة التي لدينا عنها أكثر.

قال ماكيافيل بأن بورجيا لم يرتكب جرائم شنيعة، ولم يضعه محط اتهام، لكنه قتل أخاه المزاحم له في الحكم، وذبح سويسريي الكنيسة بدافع الحقد على بعضهم، الذين أهانوا أمه كما سلب الكاردينالات والأغنياء أموالهم وأنعامهم لإشباع طمعه وجشعه، فضلاً على أنه قد باع إقليم Romagne لدوق Urbin ، وقتله للعديد من الناس، كما لا ننسى خيانته لـ Sinigaglia وإغراقه لامرأة بعد أن نال منها في النهر، هذا دون ذكر الجرائم التي أمر بها وهي لا تعد ولا تحصى!

تلكم إذن هي صورة النموذج التي اقترحها ماكيافيل على كل أمير يرغب في ارتياد الإمارة تبعاً لعبقريته وحظه.

إذا كنا نؤمن الإيمان الكامل بالدفاع عن الإنسانية ضد كل من يريد تحطيمها وجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن نتصدى لماكيافيل بتفصيل كبير حتى لا ينزلق كل قارئ لكتابه وراء دروسه ونصائحه.

رأينا فيما سبق من حديث عن سيزار بورجيا أن هذا الأخير يعمل على تأسيس مجده وفق خيانات الأمراء الإيطاليين، كما يجتهد في إشعال نار الفتن بينهم حتى يتمكن من نهبهم والسطو عليهم دون أن يتحاشى الجرائم الكبرى، وأما طموحاته لم تحدها حدود لما ينصت لفظاظة أهوائه، فقد كانت قاعدته المنطقية تقول: لكي أغتصب جيراني علي بإضعافهم أولاً، ولكي أقوم بذلك علي بالفتن بينهم، وتلك من قواعد النذلاء. فقد أعفى

2 - Valentinois: بلدة فرنسية،احتلت مكانة سياسية منذ القرن XVII حينما استقلت عائلة من موناكو عن السلطة المركزية.

3 - سيزار بورجيا César Borgia : من أصل إسباني، استقرت عائلته بإيطاليا، وهو من بين نماذج أمير ماكيافيل.

ألكسندر Alexandre VI [4] من مصاهرة لويس Louis XII [5] بمكر شديد حتى يقدم له عوناً، رغم أن هذا السلوك من عوائد الكنسيين الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم، بحيث لما تظهر لهم أبواب أخرى ينسون صديق الأمس؛ فإذا لم يتم الزواج بشكل طبيعي فإن البابا على استعداد لإقباره دون أي تدخل سياسي مباشر، وإن أقبر لا أحد باستطاعته إرغام رئيس الكنيسة ونائب المسيح على إتمامه.

لقد استهدف من سياسته هذا خلق مدينيات بالهبات والعطايا، وهي في بعد ما سياسة الراشي المجرم الذي يستطيع خلق نفوذ، من جرائمه في الإرتشاء أيضاً تحديه لعائلة Vitellozzo وعائلة Olivertto de Fermo لكن ماكيافيل يؤكد رواية أخرى تقول بأنه أتى بهم إلى إقليم Sinigaglia حيث هلكهم جميعاً.

يخدع ماكيافيل الناس ويشككهم فيما يؤمنون، كما يخفي عنهم القبح برغبته في حيل دنيئة، إنه حلاف مخادع مزور، ومع ذلك ينعت مساره بالتبصر والحكمة، لا أتحدث هنا عن الديانة أو الأخلاق لكن عن المصلحة. يكفينا ما نجده عنده من خلط بين الدين والأخلاق والمصلحة. لهذه الأسباب تجدني متسائلاً: هل يصدق الناس الوفاء أم القسم؟ إذا نقضت الوفاء والعهد وخنت الثقة والقسم فما هي الضمانات التي تعطيها للناس وكيف يحترم الناس سلطتك وهيمنتك عليهم؟ وإذا دمر الإيمان والثقة هل سيبقى شيء ما نثق به وكيف ستؤسس هذه الثقة الجديدة بوعودك؟ إنك تعطي أمثلة للخونة والتاريخ يعج بهم، بل إنهم على أتم الإستعداد لتقليدك؛ فهل هناك خيانة لها نظرية خاصة بها!؟ تقدم دروساً في

4 - لويس Louis XII: إزداد بإقليم Balois سنة 1462 ومات بباريس سنة 1515، كان ملكاً على فرنسا بين 1498 و 1515، وهو إبن شارل وماريا دو كليف، سجن سنة 1488، حارب في إيطاليا خلال 1494 و 1495.

5 - لويس Louis XII: إزداد بإقليم Balois سنة 1462 ومات بباريس سنة 1515، كان ملكاً على فرنسا بين 1498 و 1515، وهو إبن شارل وماريا دو كليف، سجن سنة 1488، حارب في إيطاليا خلال 1494 و 1495.

الإجرام والقتل دون أن تخشى عاقبة دروسك وثورة مريديك، وأنت لا تنتظر إلا من يريد أن يبلغ مسلك الريادة في الجريمة وشرف تعليمها لحيوانات غير طبيعية تتبع مسارك، ولعلمك أيها المرشد فإن العواقب متشابهة الفضائع على أصحابها.

لا يحق لأمير أن يحتكر الجريمة، وهو لا يجد من يعاقبه على فعلته، فالجريمة كالطبقة الجيولوجية إذا انهار طرف منها يحطم كل ما يجده أمامه، وقد ينكسر هو نفسه لثقله؛ ياله من خطأ شنيع، ذلك الخطأ الذي يغوي العقل رغم أن ماكيافيل يتلذذ كلما ناقض مبادئ الإنسانية!

نصب سيزار بورجيا السيد Orca القاسي حاكماً على رومانا من أجل ردع الصدع فيها وصد السرقة والقتل المتفشيان في البلدة، إنها مفارقة عجيبة، ويالها من مفارقة!

لا سيتطيع بورجيا معاقبة الآخرين على جرائم ارتكبها بالأمس لأنه يفوقهم اغتصاباً وتمويها بالقسم، وأقساهم وأكثرهم قتلاً وتسميماً؛ هل يمكن معاقبة الغشاشين والقتلة المقلدين لأستاذهم من بعده؟

بعد موت ملك بولونيا عرفت البلاد صراعاً امتد تأثيره إلى المناطق المجاورة مما جلب عليها الأطماع من كل جانب، وقد كانت قوانين السكسونيين تعاقب الفاسق كيفما كانت رتبته بقطع الرأس.

لن أتطرق هنا لأصل هذا القانون البربري الذي بهر الإيطاليين كثيراً بالمقارنة مع الألمان، كما كان يحكم هذا القانون على كل متماطل في تطبيقه كقانون ينص على العقوبة المذكورة بالعقاب نفسه؛ أي: بقطع الرأس، ونظراً لخطورته الكبيرة وقف أوگست Auguste [6] ضده، ويرجع

6 - كايوس جوليوس قيصر أوگستوس (أوگست Auguste): امبراطور روماني، إزداد سنة 63 ق.م ومات سنة 14 م بنولا. لقب بأوكتاف Octave، أعاد النظر في القانون الروماني وتقسيم الأقاليم ومجلس الشيوخ، غزا إسبانيا، وفي عهده امتدت حدود الإمبراطورية إلى نهر الدانوب، وقد جعل منه الرومانيون إلها بعد موته.

ذلك لحساسيته المفرطة نحو الإنسانية، وفي نفس الآن نرى أنه قدم حبا وعطفا للمجرم، يظهر ذلك حين شرع الناس في الغزل والمجالسات الليلية كأنهم قد أحسوا بتخلصهم من السخط السكسوني.

يتراى لنا مسلك أوگست متصفاً بالحساسية على النقيض من بورجيا المتصف بإخلاء السبيل من كل رادع أمام المجرمين والطغاة، لذلك نقول أن الأول قد نصب نفسه أبا للشعوب نظراً لتسامحه مع الطغاة، أما الثاني فقد امتاز دائما بالفساد والعذاب والإضطهاد المسلط على رعاياه؛ ونحن نرى أنه لا ينتظر منهم إلا مثيله، فلما أظهر الدوق Orca للواجهة كان ذلك بغاية سعادة البشر لكن ببتر العضو الوحشي من أجسامهم.

لن يتكالب الشعب على المستبد إلا إذا أسكن الجور في ظل القوانين، ولم يترك لشعبه وقتاً يواسي فيه الجراح ومداواة الأعطاب؛ ففي نظر هذا المستبد يجب أن يكون البعض متهماً والبعض الآخر تحت العقاب، ولعمري أن الأمر إفساد للشعب مع التظاهر بالعفو وبالعدل الخادع: أين تكمن مهمة الوزراء غير القادرين على التصدي لجرائم الأمير؟

يبدو أن الوزراء إن سايروه يؤلفون احتياجاته، ولا يخدمون إلا جرائمه، وهو درس لكل من يطمئن بسرعة إلى المكر كما هو الحال في مثل سيزار بورجيا، وفي أولئك الذين يكرسون حياتهم لخدمة الفضيلة، والحاصل أن كل جريمة تحمل معها عقاباً ما.

كانت لفطنة البابا فيما مضى بعض التبعات بعد ما تولى بورجيا السلطة، المتمثلة في قتله لكل من سلبهم أموالهم حتى يزيل خطرهم على الإبن القادم للسلطة، إنها شلالات جرائم لا ينضب سيلها، فإذا أردت أن تمول الخسائر عليك بجمع الأموال، وللحصول عليها لا محيد لك عن قتل الورثة، ولتنعم بالأمن عليك بالإبادة، كما يجب عليك أن تحترس من الجميع، فإن تقدم نحوك أحدهم يتبعه الآخرون، ومعنى ذلك؛ أن الجميع على أهبة للثورة عليك، فقط ينتظرون الخطوة الأولى للفتك بك.

استدعى سيزار بورجيا بعض الكاردينالات لحفل عشاء عند أبيه، وكان قد وضع لهم السم في الأكل، فأخذا منه قسطاً وأبوه سهواً، والنتيجة هي موت الأب ألكسندر VI بينما نجا بورجيا بقدرة قادر؛ فهل هذه هي سمة الفطنة التي تعب ماكيافيل في تمجيدها، وظل بنفس الكيفية قديس Meaux[7] وقديس Nîmes [8] يمتدحان Trajan، وفي مدحهما لا يقلان عن ماكيافيل مع سيزار بورجيا؟ فإن كان مدحه قصيدة أو على شكل فني من الخطابة يهدف إلى إثارة العواطف الرقيقة نحوه فلا مناص أننا سنغفر له ذلك، لكن الأمر يختلف تمام الإختلاف، لأن أسلوبه أسلوب يتجاوز سلالة البابا ألكسندر VI، ومؤلف الأمير مؤلف جدي يظهر سخف صاحبه أكثر من اجترار المدح لحيوان ممقوت من قبل جهنم، لكن مؤلفنا حاول تنزيهه، فإن لم يصل إلى مرتبة مهمة من مراتب البابوية في Saint-pierre فلأنه «عند الرجال العظام لا تمحو الشتائم الماضية ما قام به غيرهم»، ولا نحصل في نظري على لقب الرجل العظيم إذا اتصفنا بالحسد والنزعة الإنتقامية متصفين بالخداع والغدر، لهذا السبب دون غيره لم يجن بورجيا من جرائمه ومكروماته الخادعة خيراً يذكر رغم طموحه، لقد فقد رومانا بعد وفاة أبيه بخيراتها الكثيرة والتجأ إلى ملك Naverre باسبانيا حيث سحق هناك بمكيدة من مكائده.

تتلاشى الأمنيات والطموحات الخفية الشنيعة حالما يظهر للناس البطش والإستبداد والحرب والفظاظات والقسم والخيانات، والعيش في الأوضاع المأزومة التي يحبها سيزار بورجيا كثيراً، فهي صورة للرجل الذي يشبه طائر الطنطال الذي يهجر البحيرة ليلاً ويظل فيها باحثاً عن قوته، هل يبحث الطموح عن النصر فقط؟ إن كان الأمر كذلك فهو هراء، لأن المجد الخاطئ الذي نلهث وراءه والذي يدعو إليه ماكيافيل لا يساوي في حقيقته إلا مثال خيط من دخان، فقد ضاع الناس وراء ما خلفه الأبطال القدماء،

7 - مو Meaux: منطقة غالية – رومانية.

8 - نيم Nîmes: مدينة فرنسية تبعد عن باريس بـ 704 كلم.

بحيث أن أعمال هؤلاء تشبه الجداول التي لا نستطيع تمييز تنوعها عند المصب. فهل ما نهدف إليه هو السعادة؟ وهل السعادة هي مبتغانا؟

إن المسالك مليئة بالأشواك والسياج، فإذا اقتفينا أثر ممن سبقنا في هذا الطريق لن نعثر إلا على الكآبة والحزن لأن السعادة الحقيقية مرتبطة بالحظ كجسم HECTOR مع عربة أخيل Achille، فلا وجود لها إلا في قلب الإنسان ولا طريق إليها إلا الحكمة.

البـاب الثـامـن

أدعوكم جميعاً لتفحص حالة Les philippiques في أوربا للسيد De la Grange ، انها لوحة لنصوص قاسية مع التوهج الذي يتخللها، والذي يمكن أن نعترض به على ما يرد عند ماكيافيل، ورغم قساوتها فهي ليست وشاية ضد الوصي على العرش في فرنسا. وضح ماكيافيل في كتابه "الأمير" القواعد الموصلة للمجد، لكنها قواعد في الجريمة المعتبرة كسلاح وحيد، وهي عنوان هذا الفصل من كتابه، فإن كان مدرساً في حلقة المجرمين أو ملقناً بجامعة الخونة نقبل منه ذلك، ولذلك ندعو إلى أخذ كل احتياط وحذر من دروسه مع عدم الإنبهار بها لطبيعتها، فالكتاب كما هو معلوم حين يطبع يصبح أداة للتواصل مع الكون، كما يتواصل مع فئة مخصوصة من الناس تسعى للفضيلة أو أختيرت لقيادة الآخرين؛ هل توجد سفالة أكثر من تعليم القتل والجرائم والمكر للناس؟ من غير المستبعد أن نأخذ نفس الأمثلة التي اعتمدها، من أگاتوكليس Agathocles [1] وألبيرتو دي فيرمو Alliverto de Fermo.

والملاحظ أن المثل الخاطئ يغالط الحقيقة حين يقدم للغير، فأمثلة من أگاتوكليس وأوليبرتو دي فيرمو تحيي في الناس غرائز العدوان كالقتل رغم جهلهم بهما. فكم رواية أفسدت عقول الشباب كحادث Medo و

1 - أگاتوكليس Agathocles: ولد سنة 361 ق.م، ومات سنة 289 ق.م، طاغية روماني حارب القرطاجنيين.

Grandalin، إنها روايات تشد الأذهان إليها وتجعل العقول تتمثلها أثناء القراءة.

ياله من رجل عبقري، هذا الملك المغامر المجازف الوفي للتمييز القديم للمواطن، هذا البطل الهائم المنحل الأخلاق المتدني القيم المركز على حياة ألكسندر الأكبر وعلى من عرفه من أمثال Quinte-Circe[2] الذي خرب بولونيا و Stanislas الذي تولى الحكم بعد Porus بعد معركة Arbeles التي ظهر فيها تحدي Poltwa [3]. هل لكم سعة الصدر لأورد أمثلة أخرى؟

لما نروم الحديث عن تاريخ الفكر الإنساني، فإننا نلاحظ غياب الشروط والظروف والدول لأن الفلسفة يتساوى فيها الملوك مع غيرهم من البشر، يعلم الكثير منا ما حدث منذ سنين خلت تحت عنوان Cartouche [4] في لندن، لقد كان موضوع هذه المسرحية هو القيام بمهارات جسدية لتقليد شطارة اللص، وبعد انتهاء العرض إلتفت جمهور الحاضرين إلى لوازمهم وحللهم، فمنهم من وجد خاتمه مسروقاً كما فقد غيرهم ساعاته، ولهذه الأسباب بادر رجال الأمن لمنعها، وقد فعلوا خيراً لأنهم وقفوا في وجه لغو قابل للإنتشار بسرعة فائقة.

ركز ماكيافيل على الأسباب التي تساعد كل من أگاتوكليس ودي فيرمو في الحفاظ على دولهما دون تطرقه للقساوة والبطش، وقد نوه كثيراً بالحكمة والتبصر في ارتكاب الجرائم ـ وإن كان تبصرهما وحشياً همجيا ـ وممارسة الإستبداد، وهي أمور يطلق عليها الكره السياسي، مع العلم أن ماكيافيل قد طلب من صاحبه تنفيذ جرائمه مرة واحدة مادام تبرير ذلك

2 - Quinte-Curce: مؤرخ روماني عاش في القرن الأول بعد الميلاد، له مؤلف تحت عنوان "تاريخ ألكسندر".

3 - بولتاڤا Plotava منطقة بأكرانيا، هجم عليها شارل الثاني عشر ملك السويد في 8 يوليوز 1709.

4 - لويس دومنيك كارتوش Louis Dominique Cartouche : رئيس عصابة لصوص، فرنسي الأصل، ازداد بباريس سنة 1693 وتوفي سنة 1721.

يعود لمصلحته، كما دعاه لقتل كل مشتبه فيه، وكل من يخشاه وكل مناصر للعدو دون تأخير في الإنتقام، لذلك أظهر استحسانه للأعمال التي قام بها Vêpres Sicilienne[5] ولوحشية Saint-Barthélemy[6] المخجلة للإنسانية.

لا يخشى ماكيافيل هول جرائمه مادام يفضل زرع الرعب في نفوس الرعايا وإبقائهم على الولاء الدائم، وقد جعلت هذه الأسباب Saint-Barthélemy سفاكاً للدماء، يضحي بالمئات في يوم واحد دون استحسان لفترات الراحة بين أوقات المجازر.

ترسخ الوحشية المفاجئة الفزع والرعب والخوف، وقد أشار ماكيافيل في هذا الصدد إلى الامبراطور أوگست Auguste الذي كان نموذجاً في المكر والقتل، وقد سبق لهذا السفاك أن كان على أهبة لمغادرة العرش لولا نصائح Mécéne[7] و Agrippa[8]، ولربما لهذا السبب بالذات أسقطه ماكيافيل من تصانيفه.

هل توجد سياسة شنيعة أكثر من هذه التي نقرأ عنها الآن؟

قد تزحزح مصالح الفرد العالم كله خاصة إذا ما اتصف طموحه بالخبث وبشاعة التدبير ومرافقته للوحوش الموجودة في العالم؛ فنقض الوعد

5 - Vêpres : لقب أحد حكام صقلية، مات سنة 1282، قتل الفرنسيين ومحقهم نهائيا بصقلية.

6 - Saint- Barthélemy : خلال 23 - 24 من شهر غشت من سنة 1572 تم قتل البروتستانتيين بباريس في عهد كاترين دو ميدسيس، وقد بلغ عدد القتلى 3000 ضحية. وقد صارت ذكرى Saint-Barthélemy ليلة قدسية يحتفل بها ملك إسبانيا فليب الثاني والبابا گرگوار XIII وترمز إلى التسامح فيما بعد.

7 - Mécène : في الأصل اللاتيني هو: Cais Cilnius Maecenas وهو فارس روماني. أطلق هذا الإسم على أريزو Arezzo المزداد سنة 68 ق.م ، الذي كان صديقاً وفياً للإمبراطور أوگست.

8 - AGRippa : روماني واسمه الكامل هو Marcus Vipsanius، ولد سنة 63 ق.م ومات في سنة 12 ق.م. عاش على عهد أوگست.

والإخلال بالواجب الإنساني والإنغماس في الملذات واتباع الأهواء علامة على ما سبق من القول، وبذلك نرى أن من واجبنا مواجهة مثل هذه الأهواء، وهي الغاية التي دفعتني لتأليف هذا الكتاب.

خالف ماكيافيل الصواب في الإستخلاص الأول، إذ يبدو مثال أگاتوكليس في غير محله، والظاهر أن أگاتوكليس لم يجن ثمار جرائمه الأولى، حيث ظل يحارب القرطاجنيين سنيناً، وكاد أن يتخلى مرغما عن جيوشه في افريقية بعدما قتل الصبيان في هجوماته الأولى، وانتهى مصيره مسموماً حين مات أوليبرتو دي فيرمو نتيجة مكر سيزار بورجيا، ولعل موته هذا قد سبقه غضب شعبي لكن ماكيافيل أغفله عنوة واهتم فقط بجرائمه المرتكبة في لهو وسرور.

لنفترض الآن كما يذهب كتاب ماكيافيل ارتكاب الجرائم بعناية كبيرة دون خشية مرتكبها المستبد من موت تراجيدي أو تأنيب الضمير، بل اكتفاء صاحبها بنظرة سوداوية وإنزعاج، فلما نقرأ مثلاً عن Denys [9] و Tibère [10] و Neron[11] و Louis XI [12] أو Wan Basile Witsch نتعرف كثيراً على بطشهم الشديد الذي رافق حياتهم تقريباً فضلاً عن الإنزعاج.

9 - Denys أو Denis: أول أسقف فرنسي.

10 - Tibère : هو Tiberius Julius Caesar، ولد بروما سنة 42 ق.م، وتوفي في مدينة Misène سنة 37 م، كان إمبراطوراً رومانياً، حكم من 14 إلى 37م، وهو إبن Livie. قام بإصلاحات إقتصادية، وعلى مستوى السياسة الخارجية، امتدت حدود الإمبراطورية في عهده إلى الراين. أصابه المرض خلال مدة حكمه ابتداء من سنة 31م، ففوض الحكم إلى Sejan مما جعل أواخر حكمه يعرف الإضطرابات.

11 -نيرون Neron : اسمه الكامل باللاتينية هو Lucius Domitius Tiberius Claudius. ولد بمدينة Antius سنة 37م وتوفي بروما سنة 68م. وهو إمبراطور روماني حكم بين 54 و 68م، اتسم حكمه بالإستبداد وقيل أنه أصيب بجنون، كان سفاكا بالجميع حيث ألحق العذاب بالأغنياء. وفي عهده احرقت روما سنة 64م، مما جعل المؤامرات تكثر للإطاحة به، وقد سماه مجلس الشيوخ عدو الشعب.

12 - لويس Louis XI: ملك فرنسا (1461 – 1483) إبن شارل VII، تحالف مع الفيوداليين ضد أبيه في 1440.

يبدو الإنسان القاسي عبوساً مبغضاً للبشر، غير مهتم بمحاربة هذه الصفة في نفسه لانشغاله بالخبث، في حين أننا نرى ضرورة تشبث الناس بالفضائل، فهي وحدها تجمع شملهم وتحافظ على وحدتهم، وأما الجريمة فهي تمزقهم وتشتت شملهم ووحدتهم، وفيما يخص مؤلفنا فقد غيب الأحاسيس والإيمان والثقة والعقل، وشجع على غياب هذه الخصال كلها وأكد على الخيانة والسفالة أكثر من غيرها، لذا سنعمل فيما سيأتي من كلام على إبراز تناقضاته الكثيرة:

إن الجريئ منا، المقدام الحاذق، لا يقارن ماكيافيل إلا بماكيافيل، يقول هذا الأخير: «إستمد أگاتوكليس مجده من شجاعة بطولية، وعليه فإن صفة الفاضل لا تكون للمجرمين والخائنين»، وأما في الفصل السابع من كتاب الأمير فإنه يقول عن سيزار بورجيا: «لقد انتظر الفرصة المناسبة، وقد نجح في استغلالها جيداً» و«أما إذا اختبرنا أفعاله يصعب علينا توجيه اللوم إليه»، فهو غير قادر «على التصرف بشكل مخالف لما قام به». هل يستطيع ماكيافيل أن يبين لنا الاختلاف بين بورجيا وأگاتوكليس؟

بالنسبة لي، لاأرى فيهما معاً إلا الجرائم والخبث، وان عمدت إلى المقارنة بينهما فلإبراز أكثرهما إجراما وفتكا بالناس، والملاحظ أن الحقيقة قد أرغمت ماكيافيل على قول الحق والإعتراف من حين لآخر، يقول في هذا الشأن: «على الأمير أن يكون ذا مظاهر، إذ في الشدة عليه أن لا يسلم في الأشياء التي تسعد رعاياه حتى يقتنع الناس بأحقيتها»، كما عليه أن لا يكتفي بالقسوة والخوف كأسس للسياسة، بل أراد من أميره أن يظفر بالقلوب لأنها أساس الأمن والسلامة، أمنه هو وسلامته هو بطبيعة الحال، وهو مضمون الوفاء الذي تكلم عنه كثيراً.

يجرد ماكيافيل أميره من كل أخلاق، لذا نرى من جهتنا فيما يخص هذا التجريد مقابلته بالإحتقار، فالأخلاقيات التي نص عيلها كتابه كالأحلام المتلاطمة المتصادمة الخالية من كل معنى.

البـــاب التـــاســـع

لا شيء يفوق الحرية، فهي الفضيلة الملازمة لكل إنسان، من المتحضر إلى المتوحش. وبما أننا ولدنا دون قيود مسبقة فنحن في شوق دائم لحياة بدون خوف، كما لا نفضل التبعية إلا لأنفسنا، ولهذا لا نحبذ إذلال الآخرين إلا حين تتضح نزوعاتهم وأهواؤهم.

لقد كانت الرغبة في التحرر وراء كبار العالم، كما كانت وراء حكومات أطلق عليها إسم الحكومات الجمهورية، تلك الحكومات التي تقف على قانون حكيم يدافع عن حريات المواطنين ضد كل من يرغب في اضطهادهم، وضمان حق المساواة بينهم، الشيء الذي جعلها تقترب من حالة الطبيعة.

وضح ماكياڤيل في هذا الفصل الأسباب السياسية التي ترفع البعض إلى حضوة الرئاسة؛ سواء بفضل الحكام أو الشعب، وقد ألهمني قوله هذا للتفكير في قضيتين: الأولى سياسية والثانية أخلاقية.

والظاهر أن الذين يصلون إلى الحكم كما ذكر ماكياڤيل قلة قليلة في التاريخ، فالجمهوريون يكرهون كل من يتدخل في حريتهم، ويقفون أمام من يتوق للثورة على سيدهم باسم الحرية نفسها. ففي أوربا مثلا وجد من تصدى للطغاة رغبة في الإستقلال والأمن رغم أن الأوربيين لا يعرفون من قادهم لهذه العبودية.

لقد سقطت حكومات كثيرة في الإستبداد، وهو نحس يلاحق كل من يوجد في العالم مختبراً صبره: كيف يمكن أن تتصرف جمهورية ما في وجه كل ما من شأنه أن يعكر حريتها إلى الأبد؟ وكيف يمكن لها أن تقف ضد طموحات الكبار ورغباتهم خاصة وأنهم قد تربوا فيها وتغذوا منها؟ وكيف تواجه فساد أعضائها وغواية جيرانها؟ بل الأكثر من ذلك، كيف يمكن لها أن تخرج سعيدة من الحروب التي خاضتها، وتتعرف الظروف والمصادفات الفاعلة في الحرية وأوقات رفضها أو قبولها، والظروف التي تسمح بظهور المخاطرين والمتهورين؟

سيكون المواطنون فريسة إذا قادهم رؤساء جبناء يتصفون بالخوف والخجل، والعكس صحيح إن وجد على رأسهم من يتصف بالشجاعة والإقدام والجرأة التي تظهر خاصة في زمن الحرب لا السلم، وحينذاك سيكون هلاك الجمهوريات مرهونا بدستورها عاجلاً أم آجلا. فإذا كانت الحروب مهلكة للمونارشيات فهي مهلكة للجمهوريات أيضاً، فقد سبق أن حافظ آل Sylla [1] على ديكتاتورية روما، وصار آل القيصر أسياد البنادق، وارتقى الكروموييليون سدة الحكم نتيجة الحروب.

مرت الجمهوريات من الفساد والإستبداد إلى الحرية ، لكنها مع الأسف سقطت في العبودية من جديد، لقد قللت أثينا في عهد

* Monarchie : تتركب من monos بمعنى وحيد أو متفرد، ومن arkheim بمعنى قاد ودبر. وتعني الكلمة: وحيد في القيادة أو قائد متفرد.
وتطلق على كل نظام تكون فيه القيادة لفرد واحد ومساعديه. وتصدق على الملكيات التي تكون فيها جميع السلط بيد فرد واحد، وكذا على الإمبراطوريات والإستبداديات. كما تطلق على الأنظمة التي يعلو فيها الحاكم عن كل مراقبة وهي على عكس المونارشيات المؤسساتية الحديثة العهد كالإنجليز مثلاً.

1 - Sylla أو Sulla: هو Lucius Cornelius، رجل دولة وقائد روماني (138 – 78 ق.م)، كان مكلفاً بالجيش في عهد ماريوس Marius، وصل إلى منصب القنصلة سنة 88 ق.م واستطاع أن يضع حدا للحروب الداخلية، وأقام النظام بتدعيم سلط مجلس الشيوخ، كما ساهم في تدعيم ديكتاتورية الإمبراطور.

ديموستينوس [2] من شأن الملك المقدوني فليب بزحفها نحو ألكسندر، وتكرر نفس الأمر لما قضى الرومان على الملوك وقطعوا مع عهدهم، حيث زحفوا نحو هذا العهد تحت عنف وسيطرة الأباطرة، وأما في وقتنا الحاضر، فقد عرف البريطانيون مع موت شارل الأول التطاول والإغتصاب.

ليست الجمهوريات هي التي تصنع أسيادها إختياراً، بل المصادفة هي التي تجعل الجميع يخضع لإرادتهم بالقوة إن اقتضى الحال ذلك أحياناً، فالأفراد كالجمهوريات يحيون ثم يموتون إما بالمرض أو الشيخوخة، فكذلك الجمهوريات، تنشأ ثم تزدهر فيصيبها الدمار إما نتيجة تهور مواطن شرس أو نتيجة هجوم الأعداء.

إذن، لكل شيء مدة زمنية يحياها، ويشهد على قولنا هذا خضوع الإمبراطوريات والملكيات العظمى لقانون التغير والتبدل والتحول ثم الدمار أخيراً، إلا أن الملاحظة البارزة هي أن الإستبداد يحمل الجميع على التفكير في الحرية.

لا نوجه كلامنا هذا للعارفين حتى يدركوا سبيل سعادتهم، كما لا نحاول إقناع أحد الجمهوريين ككاتون Caton أو لتلون Littelon بالحكومة الملكية، من حيث أنها أفضل الحكومات إن توفرت في الملك سرعة البديهة والإرادة والقوة.

قد يرد علينا ماكيافيل بلهجة شديدة النبرة متسائلا: «وهل نتوفر فعلاً على هذا لإنسان المتفوق؟»، سنجيبه على التو: إنه إنسان أفلاطون، وإنسان مجيء الميدسيسيين، بحيث لما وصل هؤلاء المبدعون المهرة كانوا يتشكلون من فسيفساء ومرمر. نعرف جيداً انسياق البشرية مع الأهواء والضلال والرغبات اللامحدودة، نظراً لإغراءات العرش. واعلم أيها الملك أن

2 - Démosthène : رجل سياسي وحكيم يوناني، ولد بأثينا سنة 384 ومات في Calaurie سنة 322 ق.م. ساهم في حلف أثينا وطيبة. وقد عاش غزو فليب المقدوني لهما في 338 ق.م، حيث نفي خارج أثينا، وظل يشجع ثورة اليونانيين الاثنين على فليب.

ملكيتك الميتافيزيقية جنة فوق الأرض، وإن مالت نفسك نحو الإستبداد فإنه سيسير بك نحو نار مؤكدة.

كما أن هناك ملاحظة ثانية تتعلق بالأخلاق عند ماكيافيل، لذلك سأبرز من خلال ردي هذا ما يسميه بالمصلحة؛ فالمصلحة عنده كالعضد أو المحور الذي يدور حوله كل شيء، كالأفعال الخيرة والخبيثة، وتلك نظرة صائبة يجاورها العدل والنزاهة.

لقد رغب في جعل المصلحة أساس كل شيء في العالم، كما حدث لليسوعيين الذين حلموا بتخليص العالم والناس بالتخويف وحده دون إغفال شرور الوحش والجن. وبما أن المصلحة أصل الأفعال نرى ضرورة التحلي بالتعقل لأنه وحده يميزنا عن الحيوانات مع شيء من الطيبوبة التي تقربنا من الإنسان.

الباب العاشر

لقد تغير العالم كثيراً عن الزمن الذي كتب فيه ماكيافيل مؤلفه "الأمير السياسي" Le prince politique في جوانب يعسر فهمها، فالفنون والعلوم التي ظهرت آنذاك كانت تجر وراءها في زمن ماكيافيل الهمجية والوحشية كغارات الگوط Goths [1] المتوالية على إيطاليا وكثرة الحروب بالإضافة إلى حضور مؤسسة الكنيسة في هذا الصراع، في حين قد تغيرت معظم عوائد الأمم الآن، وصار الأمراء الضعفاء أقوياء، وتحسن حال الفنون كما تبدلت خريطة أوربا عما كانت عليه في زمن ماكيافيل.

لنفترض فيلسوفاً يعود لذاك الزمان، وعودته من جديد بعد قضائه وقتا هناك ليعيش بيننا، ربما قد نفاجأ بجهله وسذاجته وعجزه عن فهم اللغة الجديدة للفلسفة Jargon ، واندهاشه أمام عالم جديد بسماوات جديدة وأرض جديدة؛ إذ عوض العطالة والطمأنينة التي افترض وجودها في الأرض منذ أرسطو سيجد عالما وكواكبا تخضع لقوانين وحركات مقدوف بها، وجاذبية بين الإهليليجات الدائرة حول الشمس على شكل حلزوني، مما

1 - Goths : شعوب جرمانية قديمة، جاءت من Scandinavie اسكاندنافيا، استقرت في القرن III في الشمال الغربي للبحر الأسود، وقد قضي عليهم في 375 م من قبل زحف الهونس Huns.

يجعله يضع حداً للغته الغريبة المحشوة بالتشدق المغطي للجهل، وسيقتنع بحقيقة بسيطة وواضحة عوض روايته الملغزة عن فزياء غامضة. ،من أجل اقناعه كلياً سنعمل على إعطائه تجارب مغرية حقيقية، ومدهشة في نفس الآن حتى لا يضل تائهاً كلويس Louis XII.[2]

وأما الحرب اليوم فإنها تقوم على جيوش لا حصر لعددها تفوق قدرة الثكنات الإستعابية، ويعمل الأمراء على الإبقاء عليها وقت الحرب والسلم، فقد كان الملك لويس يلجأ للجيش حينما يقدم على أعمال كبيرة في الدولة، ومن الأمراء أيضاً من كان يتوفر على عدد قليل من الجنود يسرحها حالما ينتهي من الحرب.

لقد رافق هذا التنظيم الجديد للجيش اختلاف العدة والعتاد عما كان عليه في الماضي القديم الذي اعتمد الملابس الواقية والرماح والبنادق الخشبية Mousquet. فالجنود يتوفرون الآن على ملابس منظمة، وبنادق حديدية وحراب Baïonnette ، فضلاً عن الطرق الجديدة التي ترمي إلى تسهيل وتيسير عملية الغزو أو الهجوم، كما نسجل في هذا الباب اختلاف التداريب على رمي السهام والرماح وتنوعها واختلاف الوضعيات كالهجوم أو الدفاع. وهناك اختلاف آخر يتمثل في ظهور الديبلوماسية كشرط ضروري في حوار الأمراء فيما بينهم، كما نلاحظ ظهور الجواسيس في الساحات العمومية والأماكن العامة التي تعمل لصالح أمن الأمراء، دون أن نغفل الأحلاف وتمنع الأمراء عن الظهور المعزول أمام أصحاب الطموحات حتى لا ينال منهم أحد.

تعوق هذه التحولات العامة والشاملة حكم ماكيافيل، كما تجعلها بعيدة كل البعد عن التطبيق السياسي لأنه افترَض أميراً في دولة شاسعة له النفوذ والجنود، يباشر الحكم دون مساعدين ولا حلفاء ضد الأعداء.

---

2 - لويس Louis XIV : لقب بلويس العظيم، ازداد سنة 1638 وتوفي سنة 1715، حكم فرنسا من 1643 إلى 1715، وهو ابن لويس XIII.

لقد سعيت في تواضع كبير إلى تنفيذ مزاعمه، خاصة أن الأمير المعزول، المحايد، عن الحلفاء لا يستطيع الوقوف أمام الأعداء الأقوياء مما يفرض عليه القيام بأحلاف تضمن له القوة، فالطموح وحده غير كاف، وإذا كان طموح لويس Louis XIV قد انتهى بانهزامه أمام إسبانيا، فذلك علامة على صدق قولنا الآنف الذكر. إذن، فالأحلاف مع الأمراء الصغار لا تقف عائقاً أمام التحالفات الرهيبة للملوك الذين لا يفكرون إلا في إذلال كل ضعيف. ففيما يخص الإتفاقيات والمعاهدات التي شاع أمرها بيننا حالياً، فقد كانت في القديم إلا أنها لم تنفذ كما أريد لها، ومع ذلك فقد خولت للمتعاهدين مكاسب جعلت العدو يعاني ضيقها والقلق الدائم.

بعد هذا انتقل ماكيافيل للحديث عن الملوك الصغار Principini في الدول الصغيرة، وعن وضع الجيوش في البوادي، مركزاً على كيفية تحصين خيراتها (من جنود وغذاء) في زمن الحرب، كما تطرق للخنثوات من الملوك، وللأفراد المستقلين الذين يلعبون دور الأسياد الكبار في حاشيتهم، وقد لاحظت عليه التقليل من شأنهم، ومن قدرتهم واحتقار عرقهم المشهور الذي يمنحهم حق النبالة.

لا يتطاول العقلاء في نظري أو يصيبهم التكبر ولا يفتحون أبواب قصورهم للصوص، بل يتشبه الناس بهم، ويقتفون خطاهم، ويعملون وفق نهجهم.

يقتل التبذير معظم الأمراء الألمان الصغار بالمقارنة مع مداخيلهم، وبخيلاء يسقطون في الفقر والبؤس والمستشفيات، محطمين شرف أسرهم. فإن ورثوا الإقطاعات الشاسعة وتوفر لهم الخدم والحشم والجند، وأحاطتهم الهالة والهبة لقيادة الجيوش والمعارك، فذلك مما لا يعرفون مصدره. ولك أن تتذكر قولي في الأمراء الصغار أعلاه المتهورين في الحكم الذين يعيشون على خصام جيرانهم ليلعبوا الوساطة، وهم بذلك يختمون نشيد الحرب بقلم الصلح: ففيم تنفع هؤلاء قلاعهم؟ إنهم يتحصنون فيها خوفاً من أعدائهم الصغار، ويخشون الوقوف في وجه العدو كما حدث لجِرِتشو

وإن قامت حرب على مشارف بلدانهم ينحازون لجانب القوي، Jéricho كما يغتنمونها لتقوية مكانتهم عند الحكام الكبار، وقد جسد هذه السياسة Victor-Amédée لما وصل للحكم ونال المجد في إيطاليا، في الوقت الذي عانى الأمير Turin [4] محاولات الضم والإستعمار الفرنسي.

يكمن كذلك الاختلاف في نقطة أخرى ركز عليها ماكيافيل من بين ما ركز عليه، كالمدن. إن المدن اليوم عرضة لقنبلة متفجرة Petard واحدة لتجعلها حطاماً إن رغب الامبراطور في ذلك، بغاية أن يصير سيدها الجديد.

يسهل الأمر على من يرغب في غزو المدن الألمانية كثيراً، فالمدن الألمانية محاطة بأسوار قديمة بها ثقب ومخافر، منهارة التراب، مهرأة ومهددة بالسقوط، يحميها عدد قليل من العساكر، ومن توفرت على عدد لا بأس به من الجنود تعاني جشعهم ووحشيتهم، يرأس هؤلاء قواد طاعنين في السن، وغيرها تتوفر على مدافع جيدة Artillerie، ورغم ذلك فإنها لا تضايق الامبراطور الذي يحسسها بقوته دائماً.

والحاصل أن القيام بالحرب كشن الهجوم والإرتكان للدفاع عن القلاع من مهمة الأمراء الكبار وحدهم، وكل من شرع في تقليدهم دون توفره على القوة يهديهم نفسه وكأنه يقلد هزيم الرعد، كما عليه أن يفكر في الشعب الألماني الذي كان Jupiter.

---

3 - Jéricho : مدينة تقع بين الحدود الفلسطينية الأردنية، تأسست في القرن XIII ق.م.

4 - Turin : هي طورينو المدينة الإيطالية، توجد في سهل البو Pô.

الباب الحادي عشر

تجدني أمام مفارقة غريبة حينما أروم الحديث عن هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم ورثة الرسل Apôtres، وما أفهمه من هؤلاء الصعاليك الوعاظ الدومنكانيين[1] هو أنهم أصحاب ثروة مهمة، وحيازتهم على مناصب مهمة تجعلهم يعيشون الخيلاء والغطرسة والتفاخر، ولعمري إنها صفات تصلح لغيرهم ممن يسلك عدمية الحياة.

لقد كان الإكليروس Clergé ، [2] إكليروس الكنيسة الرومانية قويا غنياً، كما اعتلى بعض الأساقفة Evêques منصب الأمراء السياسيين، وقد لعب بشكل عام الأسقف المسيحي دور الحكم بين الملوك لما يتمتع به من قوة روحية ودنيوية وكأنه الشخص الرابع في الألوهية Divinité.

كما لا ينبغي أن نغفل هنا التمييز الكبير الذي مارسه الكنسيون واللاهوتيون Les théologiens المتعلق بخصائص النفس وصفات الجسد. وإذا أردنا الرد على هؤلاء فإننا سنذكرهم بمهمتهم القائمة على الإرشاد والدعوة Vocation فقط، وإلا كيف سنفهم الخلط بين الديني والدنيوي الذي أصيبوا به؟ وسنوضح لهم في معرض ردنا قائلين: «أنتم العارفون بدقة

1 - القديس دومنيك Saint-Dominique (1170 - 1221)، مؤسس المذهب القشتالي.

Clergé: في الأصل اللاتيني Clericatus، وهي الطائفة الدينية أو الأخوية وأصبحت تعرف فيما بعد بالاكليروس: رجال الدين.

كبيرة وبتمييز Distinguo شديد حقيقة الروح والجسد، كما تميزون مصالحكم في وضوح كبير حين تتحدثون عن الروح، فمن أين يأتيكم الخلط بين الروحي والدنيوي؟».

تلف لغة هؤلاء ألغازاً نتيجة المصالح، وكأن من الأجدى أن تتصف لغتهم بالأورتودوكسية Orthodoxie. لكن هدف دعواهم هو تحقيق سعادة أرضية على غرار العالم الآخر. ويا للأسف، فقد كان من الممكن أيضاً أن تكون قوة الكنيسة قوة خارقة من خلال مضمون هذا الفصل بين الروحي والدنيوي.

أكد ماكيافيل على قوة أمراء الكنيسة وسعادتهم، فهم في منأى عن العصيان والتمرد، لا يخشون تهديد الجيران، وقد جعلهم الإسم المحترم والسند الإلهي في وقاية من كل ما يمكنه أن يهدد مصالحهم، وضد كل من يرغب في غزوهم، وإن رغب أحدهم ذلك فإنه سيخاف عقاب Titans، [3] وترى الشعوب من جانبها أن عصيانهم عصياناً للمقدسات، وقد عبَّر Despreaux عن هذا الورع السياسي بقوله: «من لا يحب Cotin لا يحب الله والملك».

إن الغرابة التي تبدو لي هنا هي العقلية المغفلة التي وجدها الأمراء عند الناس، وسذاجتهم الكبيرة، وهو الشيء الذي دفعني لأن استخلص خلاصة ترى أن قوة الكنيسة لا تقوم على الإيمان كما ادعى ماكيافيل أعلاه.

هناك ملاحظة أخرى تخص إمارات الكنيسة دون غيرها، فهذه الإمارات المزدحمة بالفقراء، وهي لوحة تبيانية لكل أنواع اليأس والبؤس والحرمان الإنساني. والملاحظ أيضاً أن الكنيسة قد اغتنت على حساب هذا التفقير المتوالي للرعية، مما جعل الشعب لا ينتظر عطايا وفضلات الأغنياء، بل بادر إلى الفساد حينما عمم الجوع، على عكس الأساقفة Les prélats الذين استفاضوا في اقتصاد خيراتهم المنهوبة المسلوبة من رعاياهم، وإن

2 - Titan: أسطورة يونانية تقول بأن تيتان حكم العالم قبل زوس Zeus وآلهة أولمب.

سألتهم عن مصدر ثروتهم يجيبونك على التو: إن السعداء هم الفقراء لأنهم ورثة الأنبياء.

لا أحد في التاريخ أكثر عمراناً من هؤلاء الرؤساء ممثلي المسيح الذين يزعمون أنهم وجدوا النموذج الأمثل في الأخلاق المقدسة، لكن الأمر غير ذلك تماماً، إنهم على فجور Obscenité وفحش ومنكر وكره للناس، وهو كذلك مصدر الشنآن والصراع. لنفترض الآن تتبع حياة كل أسقف على حدة، فما سنعثر عليه كخيط يجمع بينهم أو لنقل يوحدهم هو المجد والسمو والرفعة والعظمة الدنيوية، مع البخل الذي يتخذونه نهجاً لتأمين ثروتهم العائلية، ويكسبهم أموالاً إضافية يغتني منها أبناء زناهم وعشيقاتهم.

والملاحظ أنه كل من فكر ملياً في أمر هؤلاء الآباء سيجد أن طاعة الناس لهم مفروضة بحد السيف والقمع والقتل، وهي خاصية طبيعية فيهم يدركها كل من أطلع إطلاعاً كافياً على معنى التعصب الديني Fanatisme وتأثيره على الروح البشرية، كما سيعرف أيضاً المعنى الذي يعطيه هؤلاء للدين؛ فهو آلة حسب هؤلاء قديمة تساهم من حين لآخر في تحقيق ولاء الشعوب، كما تقف ضد التمرد وزيغ العقل البشري، ومكانة السياسة إن ميزت بين السماء والأرض لأن الشياطين سبقوا الناس إلى الوجود.

والنتيجة العامة لهذه السياسة، هي أن الدين الحق أصبح مع توالي العصور في حالة يرثى لها لما لحقه من عسف وتلفيق، ونورد هنا ما أورده ماكيافيل نفسه بمهارة كبيرة العوامل التي ساهمت في رفعة القديس Saint-Sierge ، لكنه رد عللها لسلوكات ألكسندر VI الذي امتلأ قلبه تكبراً ولم يعرف من العدل إلا الخيانة.

من اليسير جداً أن نميز في سلوكات أو توجهات بعض الكنسيين ممن اقتصروا على الوساطة بين الله والبشر، واكتفوا بتبليغ القوانين الإلهية إلى بني الإنسان الفاسد الهائم وراء انفعالاته عن غيرهم من المستبدين.

ولكي نختم هذا الفصل كما ختمه ماكيافيل، لكن ليس بالمدح الذي خص به ليون LéonX [4] لأن المدح تملق، فالإنسان العظيم يحكم على أعمال الأسلاف كما يحكم على أعماله هو لا المعاصرين له كما فعل مؤلفنا مع ليون X، ولذلك سأترك كل حكم للقراء لأنني أجهل جهلا تاماً ما كان يدور بخاطره آنذاك.

4 - Léon X : هو Jean de Medicis، ازداد بفلورنسا سنة 1475 ومات بروما سنة 1521، شغل منصب البابا بين 1513 و1521 كان محباً للآداب القديمة.

الباب الثاني عشر

يختلف كل شيء عن غيره من الأشياء في الكون، ويأتي غنى الشيء من الخصوبة والتوالد المؤكد للاختلاف في النباتات أو الحيوان أو المناظر والألوان والامتزاج، وفي صور الإنسان، كما تطال هذه السنة الشمولية طبائع الامبراطوريات المطلقة أو الملكيات المطلقة. وإذا طلب مني شرح الطبيعي فيها فإنني سأتوجه على الفور إلى العنصر الزمني في الملكيات وإلى امتدادها وعدد الشعوب التي تسكنها، وموقعها بالنسبة لجيرانها من الدول، واقتصادها وعاداتها وقوانينها، وإلى مصادر ثروتها. سيكون الاختلاف بينا حساساً جداً إذا تطرقنا للجزئيات، ومثل الاختلاف هنا كمثل الأطباء، إذ هؤلاء لا يمتلكون سراً أو دواءً يشفي جميع الأمراض، وعلاجهم لا يتناسب مع كل التعقيدات. لذلك نرى أن هذا المثل ينطبق انطباقاً كبيراً مع المجال السياسي، بحيث لا يمكن لأصحاب التجارب الطويلة أن يقدموا مجموعة من القواعد السياسية العامة القابلة للتطبيق على جميع أنماط الحكم.

يقودني هذا التأمل إلى معالجة إحساس ماكيافيل اتجاه الجندية أي: الجنود الأجانب ووضع المرتزقة Les Mercenaires التي رفضها بدعوى إجحافها وضررها للدول التي تستفيد منها أو تستقدمها بغاية الخدمة والعون، وهي واقعة بادية للعيان في جميع التجارب السابقة والآنية لأن أحسنها هي الجيوش الوطنية، ونجد أمثلة لذلك مجسدة في نموذج مقاومة Les Leonidas لـ Thermopyles لما كان هؤلاء عبيداً عند الإغريق يحاربون

في صفهم، وهناك مثل آخر في الامبراطورية الرومانية التي سيطرت على العالم بجيوشها الوطنية.

لقد خيب ماكيافيل ظني كثيراً حينما رام الحديث عن الامبراطوريات التي يحكمها المرتزقة، ويزداد خيبة لما تهمش الرعية ويتفشى البطالة والتخنث في الوقت الذي يتقوى فيه الجيران.

لاحظنا من ذي قبل أن الدول التي تخرج من الحروب الأهلية تكون أقوى من أعدائها لأن مواطنيها تجندوا لها وانخرطوا فيها. فإذا كانت للناس ألفة بالأشياء المتكررة أمامهم فهناك استثناءات تتطلب تحديد القاعدة التي تخص الامبراطوريات أو الملكيات المطلقة المفتقدة للرجال وقت الحرب مما يضطرها للجوء إلى المرتزقة، بحيث ترى في هؤلاء حلا وسطاً يسد أخطاءها ولو لفترة محدودة. كما ركز ماكيافيل في هذا الفصل أيضاً على وجود عدد من الجنود يمتزجون بالجيوش الوطنية، وقد نبه بلغة شديدة للصوصيتهم، وحذر من ما يمكن أن يلحق الدول منهم بغية تعويدهم على نفس القوانين، ونفس الوفاء والفنون، ونبه القواد إلى عدم التقليل من شأن العدو حتى لا ينعكس ذلك سلباً على الجيش.

فما نلاحظه الآن هو امتلاك ملك الشمال لجيوش مختلطة تفتقد القوة والشجاعة، في حين أن الجيوش الأوربية عامة تتكون من المرتزقة والمواطنين. وقد نجم عن هذه الوضعية انهاك سكان المدن والفلاحين بالضرائب من أجل بناء الجيش رغم أن الجيش في الواقع مؤلف من المهمشين والمحبين للبطالة. وأما فيما يتعلق بصرامة القائد فإننا ندعوه لمعاقبة المتعنت العاق الطائش المحب للدعارة، بحيث أن مثل هؤلاء يروجون للإستخفاف من القواد ولا سيما إن كانوا من الغرباء المرتزقة، وهي صورة مناقضة لما كانت عليها الامبراطورية الرومانية لما اكتسحت العالم بانضباط جنودها. والظاهر أن زمننا هذا بدأ يعرف نفوراً من الانخراط في الجندية، وهي سمة لم يعهدها الرومان قديماً حينما قاتل جنودهم من أجل أسرهم وبيوتهم Pénates ولصالح البورجوازية الرومانية. كان يمتاز باستقامته في المعارك دون أن يتبادر لأحد عناصره

الفرار. ويا للأسف، أن وضعية الأمراء الأوربيين متشابهة إلى حد بعيد، فقوة هذا لا تفوق ذاك، والنتيجة الحتمية لذلك هي أنه لن يخشى أحدهم الآخر، ربما نسجل استثناء للسوديين الذين شكلوا جيشاً من البورجوازية بمعنى أنهم جمعوا بين الفلاحين والجندية في نفس الوقت. ولهذا الجيش عيوب هو الآخر قد تظهر وقت الحرب حينما يتركون الأرض خالية لا تجد من يفلحها، والعيب الثاني الظاهر فيهم الآن هو فوضاهم وعدم انضباطهم حيث يتركون العدو ليتصدى بعضهم لبعض.

وأما ملاحظات ماكيافيل المتعلقة بالمرتزقة فإننا سنعمل الآن على النظر في أحاسيسه اتجاهها، مبتدئين بالسؤال التالي: ما الذي يشغل الأمراء الكبار عن ترأس الجنود بأنفسهم كما يترأسون بلدانهم؟

في نظرنا تعود نصرة الأمير ومكاسبه لعدله وحلمه ودفاعه عن شعبه كهم دائم، وإذا كلف وزيره عليه أن يشدد من مراقبته، بل يستحسن أن يتولى أمر الدفاع عن البلاد بنفسه، فقد كان أوگست Auguste أميراً فعلياً على الجنود، يتواجد بينهم، يصدر الأوامر فعلياً حتى يضمن لها التنفيذ والنصيحة، يضع حداً للشقاق بين الرجال، ويسهر على الأوامر إلى آخرها. ولما يشعر كل أمير بتفشي ما يهلك الجند يسرع إلى التدقيق في المؤن والعدة والدخائر، ويجعل كل قائد على رأس فيلق لا يتعدى ألفا وخمسمائة محارب، واضعا له الشروط والضوابط وكأنه هو الذي يرأس الفيالق لا القواد، مما يجعل كل قائد في حيرة ووهم من أمره. وإن اقترب وقت المعركة يبين لقائده لزوم النصر عن النية الحسنة، والحظ عن التمهل في العمليات الحربية، كما يوضح له بالأمثلة والدليل أهمية تجنب الأخطار والمخاطرة لأن سمعة القائد هي سمعة الأمير، تبقى حاضرة في الأذهان على مر العصور.

إن النصر عموماً مرتبط بالمهارة والحكمة والفطنة وبقيمة الأمير حين يحصن دولته من الغزوات Incursions، وهي صفات تمكنه أيضاً من معرفة المنازعات، كما تهدف إلى قيادته للجيوش بنفسه وتقاسمه للمصير مع رعاياه.

من غير المحتمل أن يعترض علي معترض بزعم يفيد أن الأمراء لا يولدون مجندين وليست لهم عقلية عسكرية ولا التجربة الكافية في ذلك.

إنه في نظرنا اعتراض غير كاف لوجود جنود بين العساكر لهم الدراية الكافية، ويقتصر حال الأمراء مع وجودهم على الإصغاء إن تقدموا بنصائح أمامهم، ومع ذلك، عليهم أن يخضعوا لسلطة الأمراء وحدها دون غيرها. وقبل أن أنهي حديثي هذا أطلعكم على قول ماكيافيل يقول فيه: «تطاول البنادقة على دوق Carmagnole الذي كان قائداً لجيوشهم حيث أرغموه على الخروج من العالم». اعتقد أن الخروج من العالم لا يكون إلا بالسم أو القتل أو الغذر أو الموت، وهي مجمل نوايا العقيدة التي يدافع عنها مؤلفنا، طبيب الإجرام، بقوة الدليل والحجة رغم تلطيف اللفظ.

كان لليونان عادة التلميح حين يتوخون الكلام عن الموت، فهم لا يتقبلونها إلا بحشمة مشرفة، وقد نهج ماكيافيل نهجهم حين شرع في الحديث عن الجرائم كأن قلبه يثور ضد روحه التي لا تستطيع تقبل تعاليمه الممقوتة؛ يالها من لحظة مخزية نضطر فيها إلى توضيح أين نحن حين تنفلت منا لحظة التصحيح!

البـاب الثـالـث

يتحفظ الفلاسفة القدامى الأكثر حكمة ووضوحاً في الحكم على الأشياء، ونخص من هؤلاء فلاسفة الأكاديمية الجديدة La nouvelle académie. فقد كانوا لا يسمعونك صوتهم عن خطأ أو حدس أو تخمين présomption لكم تمنيت أن يستفيد منهم ماكيافيل، وألا ينصاع مع نزواته الخيالية المتناقضة مع العقل والحس السليم. والملاحظ أنه قد بالغ كثيراً في التأكيد على الأمير المحب للهلاك بجيوشه الوطنية عوض انتصاره بجيوش أجنبية، لذا لا يمكن أن ندفع بالشطط إلى أبعد مداه، فإن كان للعالم مبدأ وهوية فذلك يعني بالنسبة لي الصمت حتى لا أتفوه بكلام فاحش.

هناك قضية أخرى جرت على ماكيافيل التوبيخ، وهي قضية تناسب السياسة لا التجربة كما ادعى ماكيافيل في هذا الفصل، وحتى نتبينها في وضوح سنطرح سؤالا على ماكيافيل: من هو الأمير الذي لا يفضل الحوار ويلجأ إلى القتل؟

لا أعتقد أن الغريق حين يصارع الموت لا يسمع صوته أولا يسمع هو صوت من يقدم له النجده حين تمد له العصا أو الحبل. لقد علمتنا التجربة أن أول علاج يكون بالحوار، وهي حجة تفند مزاعم ماكيافيل واستدلاله الزائف، فإذا تعمقنا في مضمون دعواه لا نجد غير الحسد والغيرة والدناءة والسفالة المتنكرة، وقد يخسر الأمراء بذلك معارك كثيرة مراهنين على

اقتسام الغنائم ملحقين الضرر بالمجتمع حين تأخذ فكرة ماكيافيل هذه مأخذاً في قلوب الأمراء.

ينشأ في دولة يحكمها أمير حسود لرعيته، مواطنون يتصفون بالخجل عوض الشجاعة والحركية والحذق والذكاء؛ فالأمراء الحساد يقتلون في الناس العبقرية. ومن هذا الواقع أتى انهيار الصروح وانحطاط الامبراطوريات الشرقية التي كانت تجتهد في عقاب الرجال عوض مكافأتهم، لذا كان من الحتمي أن يسرع القواد دون تردد لاغتيال أمرائها والقضاء عليها. وفي مقابل ذلك نرى أنه على الأمير أن يحب رعيته لأن حبها يجلب الخير للدولة كلها، وأن يضحي في سبيل هذا الحب بكرامته وصبره، وأن يضمن مساعدة الرجال له، وأخيراً عليه أن يتمكن من مساعدة الناس وحسن نواياهم.

علينا أن نتجنب مخاطر الجيوش المختلطة ولو أن هذه الوضعية قليلة جداً في أوربا، وأعتقد أنها أقل خطراً من الجيوش الوطنية من حيث عدد هذه الأخيرة. والجدير بالذكر هنا أن ماكيافيل كان يتوجه بكلامه لأمراء صغار، لذلك كان مؤلفه مليئاً بالاختلاقات السياسية الخيالية، وإن أردت تشويه مزاعمه تتأتى لك الأمثلة عن الجيوش المساعدة التي خدمت الأمراء بنية صافية وحزم شديد، فلنتأمل جميعاً حروب Branbant والراين، وحروب إيطاليا وانجلترا وهولندا التي أخرجت الفرنسيين من ألمانيا بمساعدة جيوش مساعدة أو إضافية، كما يمكننا أن نطلق على انتصار الملوك الثلاثة الشماليين على شارل XII اتحاد جيوش مختلفة، وقد انتزعت الجيوش جزءاً من ألمانيا، وإلى عهد قريب منا طالبت فرنسا بحق الملك في نابولي، وكان ذلك سنة 1734، ومنها غزت ميلانو وإقليم لومبارديا Lombardia. نتساءل إذن، ماذا تبقى لماكيافيل مع هذا السيل من الأمثلة؟ وكيف سنفهم استعارته التي تؤكد على أن داوود[1] David رفض أسلحة شول Saül [2] رغم انهماكه في حروب ضد جوليات Goliath. [3]

---

1 - David : داوود، الملك الثاني للحبريين (1010 - 970 ق.م). جعل من القدس عاصمة له،

2 - حارب جوليات Goliath.

Saül: الملك الأول للأحبار (1030 - 1010 ق.م)، كان يعاني تمزق شعبه.

3 - Goliath: محارب مغامر هزم في حربه ضد داوود.

قد تبدو الجيوش المساعدة صعبة المراس على الأمراء، لكن ذلك لا يمنع من إحراز النصر بمساعدتها كما يحدث الآن للجيوش السويسرية مع الفرنسيين، حيث انتصرت بها فرنسا في معارك عديدة، وصارت تضاهي الألمان.

عملنا لحد الآن على توضيح الأحكام المسبقة، وأما الآن فسنرى أحكامه المسبقة في الأخلاق، حيث انطلق في نصحه للأمراء من حساسيته، وقد ادعى في هذا الفصل أن ييرو Hiéron السراقوسي كان يمتلك جنوداً باسلة شكلت خطراً عليه، مما جعله يعمد إلى تقسيمها إلى فرق، لكنها ثارت ضده في الأخير. وبالنسبة لنا نرى أن هذه الدروس الزائفة غير جديرة بالثقة لفقدان صاحبها صحة الشهادة.

قد تصيب أقدار القسوة والوحشية البعض، كما تعمل على ترهيب الآخرين، لكن الأمراء في منآى عن هذا كله بفضل العناية الإلهية، وذلك ما أكده ماكيافيل نفسه في هذا الفصل، حيث يقول: «لا شيء أكثر هشاشة من الإئتمان على أولئك الذي يؤسسون إمارات حسب فضائلهم الخاصة»، ونرى الآن القول ينقلب ضد قائله بعد هذا التطور الكبير، فها هو نجمه على أهبة للمغيب، وذكره محتقر بين الناس، فالشعوب حاضرة ولا يمكن أن يغيب رأيها إلا في فترات وليس دائما كما كان في مصر، والخلاصة العامة هي دعوة الأمير وكل أمير ليتطابق مع نفسه كما يظهر للناس، ولعمري إنها خصلة تحافظ على السمعة قبل كل شيء.

الباب الرابع عشر

نصادف نوعاً من الإدعاء بشمولية المعارف في جميع المهن عند المشتغلين بها، وذلك راجع لشراهة ممتهنيها. وقد يثير الأمر الشطط والسخرية بين الناس، كما هو الحال اليوم مع من يتسامح مع كل من يقبر مجهودات القدامى في العلوم التي وضعوا فيها معارفهم بخصوص النوع البشري.

فالإدعاء بشمولية المعارف عند الأوائل، الذي نتسامح معه هنا، ناتج عن رغبتهم في تمدين العالم والتفاعل مع الزمن، لكن الإدعاء المناقض للأول يتعلق بالحرب، فقد يتشدق أمامنا جندي بالإكثار من الدقة والضبط أو تعاطيه للدون كيشوتية، قد لا يهمنا الأمر هنا، لأننا نعرف جيداً أن أخطاء هذه المهنة من بقايا أخطاء اللاتين وغيرها من الأمم السالفة، لكن بفضلها في الآن نفسه صار الممتهن بالحرب عالماً فيها.

بادر ماكيافيل بالنصح لأميره في سخرية، لأنه لم ير فيه إلا جندياً، وهي الصورة المكتملة لدون كشوت[1] الذي عمل على ملء مخيلته بالحرب وحدها والخنادق فقط، مع توظيف الأماكن والعمل على ترصيص الصفوف والخطوط وتنظيم الهجومات وتحصين القلاع والجيوش.

1 - Don Quichotte de la Manche: رواية من جزأين للكاتب الإسباني Cervantes (1605 - 1615).

* Miguel de Cervantes Saayedre: ازداد سنة 1547 وتوفي سنة 1616، كان محاربا حتى فقد إحدى دراعيه في معركة ضد Lepanti وسجن خمس سنوات، له مؤلفات أخرى غير دون كيشوت.

لكم عجبت من أمره، إذ كيف انتبه للغذاء وأغفل المطاحن والنعاج والنعامات التي كان يحبها Michel de Cervantes ؟ إنها ملاحظات تزيد من نواقصه وكأنها مركز الثقل في الأخلاق بالمعنى الميكانيكي.

يشغل الأمير في خطاب ماكيافيل حيزاً صغيراً لامتهانه الحرب ولا شيء آخر، وهو جندي بين الجنود، فهي صورة تسمح لنا بتذكر ما قلناه في الفصل الأول من هذا الكتاب عن أصل الأمراء، فهم حكام دساتير وإن اتصفوا بالشجاعة فالأمر إضافة لهم.

يشبه ماكيافيل في نظري آلهة هوميروس Homere تلك الآلهة التي تبدو قوية لكنها مختلة وغير عادلة، دون أن ننسى هنا جهله بالتعليم المسيحي وتعصبه للمصلحة والعنف.

يعمل ماكيافيل على تقديم أفكار بسيطة بعبقرية ضيقة جداً يعانق من خلالها أمراء صغاراً، ومع ذلك أشفع له لما دعا الأمراء للصيد. فالصيد معروف لديهم والغاية منه التعرف على الأوضاع وطرق الدولة، وهي طريقة يلتجأ إليها ملك فرنسا أو أي امبراطورآخر، والملاحظ أن رحلة الصيد قد تستغرق سنة شمسية كاملة، فإن تفضلتم بالسماح لي بالتدقيق في هذا الشأن فإنني سأبين أن الرغبة في الصيد من طبائع النبلاء Les nobles عامة بالإضافة للأسياد الكبار Les grands Seigneurs والملوك Les Rois كأن هؤلاء يقضون ثلاثة أرباع من حياتهم جرياً في الغابة خلف الحيوانات.

إذا صادف مؤلف ماكيافيل قراء فإن قراءته تعادل تطبيقه، وإن كنت قد انتذبت نفسي للدفاع وتفنيد مزاعمه، فلأن عملي هذا كان بدافع حب الحقيقة لمقارعة أحاسيسي والدفاع عنها، كما جاء نتيجة كرهي للمدح وللتملق، ووضع قلمي في البورصة، لقد توخيت تأليف كتاب أرتاح فيه قولاً، مواجهاً كل ما يبدو لي غير معقول، وإذا شاءت الظروف وصادفه قارئ فاسد محب لغير الحقيقة ومواجهة ماكيافيل، عليه أن يرمي به، فلست من الذين يجبرون الغير على قراءته.

والآن أعود لموضوعي السالف الذكر، مؤكدا أن الصيد من اللذات الحسية التي تحرك الجسم كثيراً دون التأثير على الفكر، إنها ممارسة ودربة مميتة تستهدف الحيوانات، لكنها لا تخلو من الإسراف واللذة. وقد يؤاخذني الكثير منكم لأنني أخذت المسألة مأخذ الجد كما لو كنت راهباً أحدث الناس من أعلى المنبر، لكنني على علم بأنني أتوجه بكلامي هذا لأهل هذا الفن لا المقلدين، فالصيد نبيل وقديم جداً، مارسه أرباب العائلات والشيوخ Patriarches وكثير من الناس، حيث مارس هؤلاء جميعاً نفس العمليات على الوحوش، وقد أعطى الله لآدم Adam فضيلة الصيد، لكننا نلاحظ أنه ليس كل قديم يتمتع بالنبل، فالمقلد يرتكب أخطاء تشبه الضعف. عاش الآباء الأوائل على الصيد، كما عرف التاريخ تعدد الزوجات والزواج بالأخت، وتلك حقيقة لا مفر منها، لكن هؤلاء عانوا البربرية واتصفوا بالفظاظة والجهل والغلظة، واتسم زمانهم بالبطالة والراحة، ولربما هو الدافع لمزاولة الصيد: هل يمكننا تقليد هذه النماذج الخشنة أم يجدر بنا تقليد من عاشوا عصوراً مضيئة؟ هل كان آدم امبراطوراً على الحيوانات؟

لن نهتم بهذا الجانب، وكل ما أعرفه فينا هو قسوتنا وطمعنا كالحيوانات، نطالب بالإستبداد في امبراطورية الأرض وإذا تأتى لنا ذلك يعود الفضل فيه للعقل.

استعمل القدماء الخيول والكلاب بعد الترويض، رغم أنهم صادفوا في ذلك مشاكل عديدة، أخاف انقلابها يوما ضد الإنسان: فهل هذه هي اللذة التي نتفاخر بها؟ وهل هذا الانشغال نابع عن تبصر؟

إذا اعترض علي معترض أن الصيد صحي يناسب الشيوخ سأجيبه بأنه لذة لا تليق إلا بالأسياد الكبار، كما تناسب عظمتهم وتذهب غمهم وكآبتهم، وتدفعهم لتمثل الحروب أوقات السلم، وفي ساحة الغابة يتعلم الأمير التموقع وهو يصطاد.

سأشفق عليكم إن قلتم أن الصيد هواية، وأما إذا قلتم أنه لذة فإنني أقول لكم إنكم تغالون في استعمال اللفظ أو لنقل لماذا ترتدون أقنعة لستر

وجه مشوه؟ ففيما تنفع المجتمع حياة طويلة مليئة بالكسل والتواكل؟ لنقرأ جميعاً هذا البيت الشعري القائل: «لا نقيس عدد السنين أبداً بسباق الأبطال».

لا يتعلق الأمر إذن بحياة رجل يتدرب على الصيد وهو في سن Mathusalem، ذلك الولد البليد الكسول الضار، فبالقدر الذي يعمل الإنسان عقله في الأشياء بالقدر الذي يقوم بأعمال جليلة تنفع الناس في الحياة.

لا يناسب الصيد كغيره من الملاهي الأمراء كثيراً، وقد يجدون غيره من المناسبات للتعبير عن عظمتهم بطرق أخرى. وإذا تضرر سكان البوادي من صيد الحجل على الأمير أن يعالج الأمر فوراً، فهو الساهر على إقامة العدل في البلاد وإلا ماذا جنى أولئك الذين فكروا في إجلاء الناس وترحيلهم من أجل الصيد؟

لا يتلازم لزوما منطقياً التفوق في القيادة مع الصيد كما يزعم ماكيافيل، فقد كان كل من Gustave-Adolphe[2] و Mylord Marlbourgh والأمير Eugèn[3] من محبي التجوال والترحال كثيراً، وكانوا يتمثلون مختلف الوضعيات الحربية أثناء رحلة الصيد، والملاحظ أن التفكير على هذا النحو قد ينقلب تسلية مع وجود كلاب وحجل وأيل إلخ...، وقد سبق للأتراك أن ألقوا القبض على أمير هنغاري ضللهم برحلة الصيد، وقد يحدث أكثر من ذلك إن أقدم الجنود على الصيد، لأنه يعرقل النظام ويمنح العدو ما لم يكن في الحسبان.

يمكن أن نسمح للأمراء بالذهاب في رحلات الصيد للتسلية والترفيه لانشغالهم الطويل، فالصيد عموماً ليس مهنة إلا بالنسبة لمن يرى فيه منفعة،

2- Gustave II Adolphe : ملك السويد (1496 - 1560)، تحالف مع فرنسا وطور اقتصاد بلاده.

3- EUGENE بابا روما (824 - 827)، أعاد تنظيم الدولة الكنسية بعدما تحالف مع le Louis Pieux، وقد تولى على منصب البابوية من بعده أوجين III و IV.

أما العقلاء فإن وجودهم مقرون بالتفكير في هذا العالم والحركية لأن العمر قصير إذا ما ضيعوه في أمور تافهة، وقد سبق أن أشرت لذلك وأشدد الآن على تحصين الدولة.

فعلى الأمير وكل أمير أن يقيم النظام في الجيش وكأنه فعلاً يتعاطى مهنة الحرب دون غيرها، وإقامة المعسكرات وتفقد الرعية من حين لآخر، وإصدار القوانين والأوامر وأيجاد الحلول المناسبة.

هناك دواعي كثيرة تدفع الناس للثورة، وعلى الأمير في مثل هذه الحالات أن يعتمد قدراته العقلية لردعها، فالعقل كالجسد متى عودته على الرقص أحسست بالرشاقة ومتى أغفلته تقوس ظهرك وتضخم جسمك واستعصت حركاتك مع مرور الزمن.

الباب الخامس عشر

للرسامين والمؤرخين شيء مشترك، إذ يمزج الرسامون الألوان والأشكال الإنسانية، بينما يشتغل المؤرخون على العقل البشري ليقدمونه للأجيال اللاحقة والمتأخرة، وهناك من تجرهم يد القدر ليصححوا ما ينقص الطبيعة فيساهمون بريشتهم ملطفين ما شوهه السابقون.

لقد اتسمت لغة Bossuet [1] واتباعه، ولغة Fléchier[2] وتلاميذته بالفصاحة والبلاغة الموغلة، ومع ذلك، فقد صححوا عيوب الإنسانية وصاروا بذلك أبطالاً. وفي المقابل، نجد بعض الرسامين يتعاطون للشنيع وتلطيخ الورود والأزهار بألوانهم، يحاكون الكريه والشنيع كما نجد ذلك في La venas grecque و Le petit amour و Chefs-oeuvre للفنان Praxitéle [3] ، ونفس التشويه ألحقه الأب Daniel لتاريخ البروتستانتيين في فرنسا في كتابه "تاريخ فرنسا" Histoire de France.

1 - Bossuet : كاتب فرنسي (1627 - 1704) كان أسقفا على Condom ابتداء من 1669، وأسقفا على Meaux في 1681، دافع عن السياسة الدينية التي انتهجها لويس XIV ضد البروتستانتيين في كتابه "Les variations des églises protestantes" الذي ألفه في سنة 1688.

2 - Fléchier : كاتب فرنسي (1632 - 1710).

3 - Praxitèle : نحات يوناني من أثينا، عاش في القرن IV ق.م، له أعمال كثيرة مثل Apollon Sauroctone و Aphrodite و Hermès إلخ...

تسامح المؤرخون البروتستانتيون كثيراً مع افتراءات الأب دنيال، ولو أنه أغفل أمانة المؤرخ في نقل الحدث مكرراً تجربة الرسامين أعلاه، هؤلاء الذين مزجوا الخيال بالتاريخ، وبالتالي قدموا لنا وحوشا بشعة أكثر من بشاعة جهنم؛ إنه الخيال القاسي المعتم. ومن بين ممثلي هذا الاتجاه كذلك Les Callot [4] و Pièrre Pesta.

يشبه ماكياڤيل كثيراً هذا النمط من المؤلفين، فقد قدم لنا الكون كجهنم والبشر كالشياطين، فسياسته مبغضة للبشر تستضمر الحقد والخبث دائماً، فحين يتحدث عن الفضيلة يثير حديثه السخرية التي أجهد نفسه في تبليغها للناس، إنه على نقيض من يتكلم عن جمال الكون وكأنه في حالة سكر دائمة، ونتيجة هذا التفكير هي استحالة وضع دائرة دون مركز، والوصول إلى حقيقة معينة ما لم تكن المبادئ الأولى حقيقية، ولن تجد أخلاقه منفذاً للآخرين إلا إذا وجدت من يرغب في المصلحة، يضحي بالآخرين من أجل طموحه مع تمثله للجرائم الموجودة في العالم بدقة كبيرة.

شكلت المصلحة لغزاً في النسق السياسي الماكياڤيلي، فهي كالزوبعة الديكارتية والجاذبية النيوتونية؛ إنها روح العالم.

تبين اليوم في الطب أن انفعالات الجسم من غضب ولطف وحب وبهجة ناتجة عن طبيعة الدورة الدموية والصفراء وقوة دقات القلب والمعدة إلخ... فهل لهذه الأعضاء تأثير على المصلحة أم لا؟

إن الشيء الوحيد الذي يمكننا مقاومته هو هذه الانفعالات للاتصاف بالتعقل والوقوف إلى جانب المجتمع. يمكن أن نتلطخ بالأهواء حالما ننساق معها، وبالتالي تقضي علينا، فالواجب هو تلطيفها لا القضاء عليها، وتحويلها لصالح المجتمع بتحويل الأهداف، وكأننا سنؤسس امبراطورية تمتد امتداد أهوائنا.

---

4 - Callot : هو جاك كالو، فنان فرنسي (1592 - 1635)، رحل إلى إيطاليا، كان له تأثيراً على القرن XVII، من أعماله: Des caprices و Des Gueux و Des misèreset Malheurs...

وفي هذا الفصل كذلك نعثر على تناقض كبير لدى ماكياڤيل، إذ يقول في بدايته: «بعيد عن ما نفعله الآن وما نرغب في فعله، يظهر لي أن الإنسان الذي يخطط جيداً لحيازة الرجال لا ينقصه في ذلك إلا كيفية استعمال الإبادة». والظاهر أن المؤلف قد نسي ما سبق أن قاله في الفصل السادس عشر، حيث يقول: «بما أنه يصعب الوصول إلى نموذج مطلق للأمير، ينبغي تنصيب رجل حكيم يتشبه بالكبار وحدهم».

إننا نشفق على ضعف ذاكرته لو لم نجد سيلاً من الحكم المغلوطة كتأكيده على تأثرنا حين نوجد في عالم المجرمين الفاسدين.

ليس للعقلاء غير الحذر والتعالي عن فكر ماكياڤيل، وتمييز نوايا الأعداء والفخاخ والمكر.

فما هو الشيء القبيح في المجرمين؟

أرفض الإجرام من أساسه، فالرجل الذي ينشأ على القبح يكون له مصير Danube الذي طاف العالم لخبثه، حيث ابتدأ طوافه من سويسرا وأنهاه بالتتار Trtare.

ومن غير المستبعد بأن نجد في مؤلف ماكياڤيل أشياء فريدة وجديدة، فقد كنت بليدا قبل قراءته، وما ان انتهيت من قراءته حتى وجدت المسالك التي تجعل الرجل الصالح مجرما، كما كنت في جهل من أمر Catilinas [5] و Cartouche و Meis-Weis نماذج الشر، والآن تجدني حائراً؛ هل نحن في حاجة للعراك والخصام ورد النزوعات البشرية الشريرة؟ اعتقد أن الجميع يعرف ذلك، كما يكره التخطيط للشر.

5- Catalinas (Lucius Sergius)، رجل سياسة روماني (108 - 62 ق.م).

الباب السادس عشر

حاول رسامان مشهوران نحت صنم لمنيرف Minerve، وهما فدياس Phidias [1] وألكامين Alcamene، [2] وقد سبق للأثينين أن وضعوا لهذا التمثال صورة في مكان مرتفع، ولما قدما عمليهما للمشاهدين، استحسن الجمهور عمل ألكامين ووصفت أعمال فدياس بالخشونة، لكن فدياس تغاضى عن انتقاداتهم وصاح وسط الحشد قائلا: «إن التمثالين نحتا ليوضعا معاً أو ليتركا معاً، ولم نتفق على أي قرار بشأن جمالهما». والذي لم يدركه المشاهدون وقتئذ هو أن فدياس كان يدافع عن قواعد التناسب والمنظور، بينما احتمى صاحبه بالمنظر، فقد درس فدياس البصريات وحساب التناسب الذي يسمح برؤية الشيء وفق موقعه.

قد نستعير قاعدة التناسب هذه من فدياس لنخضع لها السياسة، ذلك أن اختلاف الأمكنة في السياسة يكون سببا رئيسياً في اختلاف الأحكام، وإن أردنا تطبيقها بشكل مطلق يعسر الأمر أو يكون عقيماً؛ فما يناسب الملكيات الكبيرة لا يصلح للصغرى، ويمكن أن يسرع سقوطها.

---

1 - فدياس Phidias : نحات يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كلفه بركليس بأعمال عديدة.

2 - ألكامين Alcamène: نحات يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

إذن، لا معنى للمطابقة بين مختلف المصالح وإلا سنسقط في أخطاء قاتلة، ولنا أمثلة في الممالك التي تقوم على الصناعة، حيث تعمل على الرفع من مطالب الأغنياء والفقراء معاً، وان خالفت هذا النهج يصيبها السقوط لفساد المانيفاكتورا والصناعة، وهكذا تتشرد العائلات الكبيرة الغنية ولن تجد من ينقذها من الضياع والتشرد والفقر. وعلى النقيض من ذلك سيصيب الدمار الدول الصغرى إن اغتنى مواطنوها لأن عائلاتها الغنية ستفقد الثروة في مدة زمنية قصيرة. فما يمكن أن نستخلصه من هذا الفصل هو عدم المطابقة بين القوانين التي تحكم الدول الصغرى والكبرى، على عكس ما ذهب إليه ماكيافيل، وهو بذلك قد تمادى في سلسلة الأخطاء لما تحدث عن العطايا بشكل عام وعائم، فإذا كنا نميز بين السخي الكريم والرجل المبذر، فباستطاعتنا فهم الفوضوي المصاب بالجنون، والذي لا يمكن أن يتشبه به الأمير في شيء.

يخضع السخي أفعاله لتفكير عميق، كما يمتاز بإحساس مرهف اتجاه الآخرين يدفعه للتنازل عن الفائض، ويجعل طيبوبته تحت إرادته، ولا يمكن أن نقيس كرمه إلا بمائدته وطريقته المثلى في مساعدة الآخرين.

كما وجب ذكر الخطأ الثاني الذي أطلق عليه ماكيافيل مزاج الأمير، يقول: «لكي يدافع الأمير عن سمعته السخية المتحملة لعبء رعاياه، عليه أن يجد أسباباً يصادر بموجبها أملاكهم حتى يتسنى له ملء خزائنه»، إنها خاصية الشحيح كـ Vespasier [3] وليس Trajan الذي فرض الضرائب على الشعب الروماني.

يفترس الشح كل ما يجده أمامه، وهو مرض يعدي الجميع، فالإنسان الشحيح محب للثروة، مطارد لمن يمتلكها. إذن هناك تناقض بين الرجلين، بين الشحيح والكريم، لأن الأصل في المقارنة بينهما هو العطاء، بحيث يهدف فعل الكريم لإنقاذ المحتاجين ولو أنه ليس هو الطبيعة المعطاء، وأوصي

3- Vespasier: هو Titus Flavius Vespasianus، امبراطور روماني (69 و 79 م) وضع حدا للحروب المدنية بعد موت نيرون.

الأمير هنا ألا ينساق وراء الرغبات المبذرة وتبذير ما يجمعه الرعايا، بل عليه أن ينشغل بهم ايجاد وتوفير مصادر جديدة للثروة. فإذا اختلفنا في المعنى الأولي للكرم علينا الرجوع إلى الوضعية التي يوجد عليها الناس في إمارة الأمراء الصغار. قد يعترض معترض بحالة فرانسوا FrançoisI [4] ملك فرنسا لما أصيب بفقدان الأمل من كثرة عطاياه، لكن الشائع أكثر من ذلك ان رغبة فرنسوا الأول قللت من جلاله، ويمكن أن نفسر أمره لاحتمالين إثنين:

أولاً: كانت فرنسا في عهد فرنسوا الأول تفتقر لمصادر الثروة رغم ما تتوفر عليه من ثروة وطاقات بالمقارنة مع الآن.

ثانياً: لم يكن فرنسوا الأول سخياً كريماً بل مبذراً أكثر من اللازم. ومن دون أن ننتقد النهج الاقتصادي لأمير ما، علي أن أقدم هذا الدرس لنفسي أولاً، فالأمير وصي على الرعية، مدبر لأموالها، مسؤول عنها، إذا كان حكيما يبذل الجهد لتوفير المصادر الكافية لوقت الحرب والضيق، لا يسلك أمراً إلا عن حكمة وتبصر واحتراز Circonspection لخدمة الصالح العام مع تشجيعه المتواصل للصناعة لأنها العمود الفقري للنصر، كما أنها تنمي الفضائل في الدولة.

ومن واجبي كذلك التصدي لمغالطة أخرى يقول فيها ماكيافيل: «إن الهدية أصل الفقر لذا وجب تركها»، إنه تفكير يدعونا لاحتقاره، لماذا إذن؟ هل يريد صاحبنا منع الهدية كي يضمن توازن ثروات الغني أم يريد لمالك الأموال الإحترام الفائق، حتى وإن كان احترام الناس له احتراماً للأموال لا للرجل؟ هل تستطيعون التفكير على هذا النحو؟

من المعروف جداً أن الحصول على الثروة يكون بالصناعة أو الإرث، وقد تتأتى بالعنف، والثروات عموماً أشياء خارجة عن الإنسان قد يملكها

4 - فرنسوا الأول:

- دوق Bretagne من 1442 إلى 1450.

- ملك الصقليتين وهو غير مقصود هنا.

وقد تضيع منه، فكيف لنا بالمماثلة بين أشياء مختلفة في العمق كالفضائل ودناءة الأموال؟

لنأخذ الدوق نيوكاستيل والسيد صامويل برنار المعروفين بثروتيهما، يسمحان لنا باستخلاص عبرة أولى تقوم على المباينة بين المرء المعروف باحترامه من لدن الناس وغيره، وحتى نجسد استخلاصنا جيداً سنفكر في حالة Cresus [5] ، ذلك الرجل المتعجرف الغني بكنوزه، ولن ننسى هنا السيد Crassus الذي بهر الناس بثروته التي تعني لهم الشيء الكثير، والحكيم اليونانيAristide [6] والملك Philopoemen [8] والمرشال Turenne [9] و M. de Catinel. لقد لقي هؤلاء التقدير والإحترام من الناس على عكس السابقين نظراً لأخلاقهم العالية التي نعتبرها نموذجاً لكل العصور رغم اعتدال بعضهم أحياناً.

ان امتلاك القلوب لا يكون بالثروة أو القوة لكن بالمقدرة الشخصية الناتجة عن الحلم والفضيلة، حتى لا يكون الفقر عائقاً أمام الفضائل، والملاحظ أن العامة والفقراء لا يحترمون الثروة كثيراً، والعقلاء من الناس يتهربون من ثروات الحظ والصدف، لذا على الأمراء أن يعلموا الناس طرق كسب الثروات عن جدارة، وبجهدهم الذاتي.

---

5 - Cressus : ملك عاش بين 560 و 546 ق.م.

6 - Crassus : ماركوس لسنيوس كراسوس ديفيس، رجل سياسة روماني عاش من 115 إلى 53 ق.م، عمل قنصلاً في 70 ق.م.

7 - أرستيد Aristide: رجل دولة وجنرال أثيني (468 - 540 ق.م).

8 - فيلبويمن Philopoemen: منظم عصبة الآخيين، وهو محرر اليونان وروما.

9 - Turenne: مارشال فرنسي (1611 - 1675) قائد الجنود الألمانية بخلال حرب الثلاثين سنة.

الباب السابع عشر

إن الأمانة الوحيدة التي توضع في عنق الأمراء هي حياة الرعية، فهي وحدها تكفي لنعفو عن المذنب، خاصة وأن الأمراء أصحاب العفو ماداموا هم الحكام الأوائل للعدل في الشعب، فإذا صدر عنهم العفو والقضاء على الشؤم سيتفضل الوزراء لإلقاء الخبر باعتزاز وفخر أمام الشعب، مبشرينه ببشرى الحاكم. وأما السلطة المستبدة المطلقة فإنها تمارس بالحذر والإنتباه مع الفطنة وسرعة البديهة والحكمة.

لا يحسب الطغاة أي حساب لحياة الناس، فمكانتهم تنزع عنهم كل رحمة أو شفقة، بحيث يشبهون فاقد البصر الذي لا يحس أو يرى إلا نفسه، إنهم طينة من الخلق لا تشعر بالعذاب الذي يلحق غيرهم، قلوبهم تتملص من كل إنسانية، في حين ينظر العقلاء إلى الطغيان حملاً ثقيلاً على الرعية، لأنهم يحسون بها كما تحس هي بنفسها، فإذا كان الجور والجائرون قابلين للإصلاح، فحياة من ذهب ضحية الجور والجائرين غير قابلة للعودة، وكل من جعل القسوة اهتمامه الأول يستنفذ جميع السبل إلا هي، وقد قال ماكيافيل في هذا الباب أشياء خطيرة وضرورية أيضاً إلا أنه لا يشعر بحياة الناس لأن إله المصلحة أعمى بصره، وتركه يتمادى في نصح الأمراء الجدد بكتمان سر قسوتهم.

يسعى مؤلفنا دون كلل لوضع أو تنصيب الجلادين على العروش سالكين طريقته في النصح، عاملين على التمسك بالقوة والعنف. لقد كان سيزار بورجيا نموذج الوافد الجديد على السياسة بالعنف كتلِماك Télémaque [1] لفنلو Fenelon الدارس لطرق الفضيلة.

كما يحتوي الكتاب (أي كتاب السيد فنلو) على بعض الأشعار لڤرجلوس Virgile [2] الواردة في الفصل الخاص بديدون Didon[3] وإن كانت فيَ غَير مكانها لأن ڤرجلوس قول ديدون كالسيد De Voltaire المتحدث عن Jacoste في أوديب الأسطورة.

قد يجد الشاعر ذاته في هذه اللغة الشعرية، لكن الأمر يختلف في السياسة، فللسياسة لغة واضحة تعتمد أمثلة واضحة من العظماء والفاضلين، لذا سأتغافل ما قاله ماكياڤيل هنا مكتفيا بالإشارة لأشياء أخرى.

للجرائم ذكر وصيت مكروه ومشؤوم، يتضاعف منذ ارتكابها، ويزداد لما يشرع الطاغية في مصادرة الأملاك بعد القتل والنفي، فما هي الصورة التي نكونها عن الأمير الذي يصل الإمارة عن طريق القتل؟ وما هو الحل الذي نقترحه للحد من نزوعات الإنسان السفاح القتال للأبرياء؟

يزعم ماكياڤيل أن التفوق يكون بالجيوش لأن السياسة في جوهرها متعارضة مع التسامح، كتسامح شيبو[4] Scipion لتعانق قسوة وجبروت حنبعل Annibal، كما فضل في الآن نفسه النموذج القرطاجني عن

1 - تليماك Télémaque بطل أسطوري يوناني.

2 - ڤيرجيل Virgile هو Publius Vergitus Maro، شاعر لاتيني (70 - 19 ق.م)، له مؤلفات من بينها: Les Goèrgique و L'Eneide وقد ترجمها للعربية عنبرة سلام الخالدي سنة 1978.

3 - ديدون Didon: أميرة أسطورية مؤسسة لقرطاج في نهاية القرن IX ق.م، وتسمى إليزا.

4 - شيبو Scipion: من أسرة افريقية، أطلق عليه شيبو الافريقي، كان قنصلا رومانيا في 205 ق.م، قاد الجيوش الرومانية لمحاربة حنبعل ليضع حدا للحروب البونيقية الثانية.

Scipion Amilien : عاش بين 185 و 129 ق.م، عمل قنصلاً في سنة 147 ق.م، أنهى هو الآخر الحروب البونيقية الثالثة بتحطيم قرطاج 146 ق.م.

الروماني، وخلص إلى القول بأن القسوة هي المحرك الوحيد للنظام داخل الجيش.

إن انسياق ماكياڤيل مع نموذج شيبو كان عن جهل، لتعاطف شيبو مع الجنود، حيث أطلق عليه Caton [5] الرحيم بالجيش الروماني.

صحيح أن النظام في الجند لا يكون دون قسوة حتى لا نترك المجال مفتوحاً للفجور والغواية والإجرام والخوف والتهور فتنمو الجراثيم التي لا تحمد عقباها، وما يمكن أن نطلبه هنا من ماكياڤيل هو الإعتدال والرحمة التي كانت دوماً طريقاً للفضيلة.

إن الرجل الحكيم كالربان في مهارته لا يفك الحبال ولا يزيل صاري السفينة حين تعصف الرياح وتظهر الزوابع. لقد دافع صاحبنا عن الرأي القائل بخوف الرعية من الأمير عوض حبها له، مقتنعاً بأن طبيعتها البشرية جاحدة ناكرة للخير والجميل، لكن الحب في نظرنا يضمن الرباط الإلزامي أما احتقاره لها فإنه يجعل الناس طيعين.

لا أعارض كثيراً تكتم الناس ونكرانهم للجميل، ولا التهديد الصالح للحاكم في بعض الأحيان، ومع ذلك أعتقد أن التهديد صالح للعبيد لا الرعية، لذا أنصح الأمير بحب الرعية والإجتهاد في تملك قلوب الناس، فالرعية وفية إن رأت الأمير يوفر لها مطالبها، وفي التاريخ قصص كثيرة وعديدة تصف حب وإخلاص ووفاء الرعية، والملاحظ أن التمرد في طريقه للزوال في زماننا هذا، ومن الشعوب من ترفض الاعتقال كانجلترا رغم أن ملكها مسؤول عن الفتن.

إذن، هناك خلاصة عامة يقوم عليها تفكير ماكياڤيل، تنقسم إلى قسمين: هناك أمير يفترض خيانة الناس له، وأمير طيب، فإن كان جزاء الخيانات المفترضة هو القسوة والغلظة والفظاظة فإن الطيبوبة حل يقبله

5 - كاتون Caton :

- كاتون القديم: رجل دولة روماني (234 - 149 ق.م)، حارب السياسة المحافظة للشيوخ الأليغارشيين، وكان ضد البذخ والتبذير.

- كاتون من الاوتيكي: عاش بين 95 و 46 ق.م، وهو سليل الأول.

البـــاب الثامــن عشـر

من الطبيعي في الأشياء أن السيء فيها يبقى على حاله إلى الأبد، ولتوضيح هذا الحكم استنفذ الشيشرونيون والديموستينيون مجهوداتهم بأساليب فصيحة بليغة في ذلك. فإذا كانت فضيلة الخطيب كهؤلاء هي إظهار حق البريئ، والتعرض للأسباب التي تدفع الناس بشكل مسبق للإقتناع بالفضائل وجمالها، مع إظهار القبح في العيوب ودناءتها، فإن ماكيافيل سار عكس هذه الغاية لما اجتهد في الجريمة وأنماط القتل، فكان لابد أن نبين هنا هفواته ونواقصه الكثيرة، ونحن في ذلك سائرون.

ألقى ماكيافيل في هذا الفصل بتفكير متلخبط وفوضوي، وهو الطابع العام في واقع الأمر في كتابه هذا، وقد سعى دون تردد ولا يأس إلى التأكيد في سفسطائية جلية على أهمية الجرائم بالنسبة للحكام عامة.

إن كان الجمهور يتلذذ بمراقبة الحكام فلأنه يتمتع بالفراغ الكبير، كما يفتقد لمشاغل تصرف نظره، وإن تفضل بحكم في حق الحكام فهو لا يعبر إلا عن تطلعاته، وعليه فإن الحكام عرضة للأحكام من كل جهة، فهم كالنجوم التي يتجه صوبها جمهور الفلكيين مسلحين بالأسطرلاب والمنظار، دون أن نغفل ما يمكن أن يروجه منادمو الأمراء. ففي واقع الحال، لا يمكن بحال من الأحوال أن تحجب الشمس أو القمر جوانبيهما كزحل، فكذلك الأمراء مع من يتتبع خطاهم في دقة وانتباه.

وقد يستطيع أحد الأمراء إخفاء عيوبه الطبيعية وقتاً معيناً لا عمره كله، فالفضوليون يترقبون دوما لحظة انكشاف السر، وما ينفلت من الأمراء لحظة السهو.

لا ينبغي الانطلاق في المقارنة بين أفعال الحكام وخطاباتهم، فإذا كنا نتوخى تطابق القول والفعل عند الحكام حتى نتبين سعادة الرعية، فمن واجبنا التنبيه إلى سلوكات Sixte-Quinte [1] و PhilippeII [2] و Cromwell [3] ، المتصفين بالنباهة والنفاق معاً.

من الصعب جداً على الأمير أن يبقى فاضلاً إن اتبع نصائح ماكيافيل، فإذا لم يفكر مؤلفنا ملياً في الأسباب التي تدفع الأمراء للنفاق والكذب والحيل، فالظاهر أن أسطورة سِنتور Centure [4] القائلة برجل ذي نصفين مختلفين، نصف إنساني ونصف آخر عبارة عن فرس، لم تبلغ مراد ماكيافيل؛ فهل يمكن أن يجمع الأمراء الفظاظة والحيل والفضائل؟

هناك ملاحظة أخرى يركز عليها ماكيافيل تهم ماهية السياسة تجمع بين قوة الأسد ومكر الثعلب، فالهدف من الصفة الأولى الإرهاب والتخويف كما يرهب الأسد الذئاب، وأما الصفة الثانية فالهدف منها هو تأكيد الإحتيال والمكر والخيانة والخديعة، التي تجعل الأمير «غير مرغم على البقاء على عهوده».

سنعاقب المتمدرس إن استخلص هذه الخلاصة كما فعل ماكيافيل دون مقدمات، لكنها عادة متأصلة في طبيب الجرائم، عمل على تقدمها دروسا في الزندقة دون خجل أو حشمة.

---

1 - Sixte-Quinte : شغل منصب البابا بروما من 1585 إلى 1590، انشغل بأصلاح الكنيسة.

2 - فليب الثاني Philippe II: ازداد ببلد الوليد سنة 1527، وتوفي سنة 1598، وهو ملك اسبانيا ومستعمراتها.

3 - كرومويل Cromwell : رجل دولة انجليزي ولد سنة 1485 ومات سنة 1540، وكان كاتبا لهنري VIII.

4 - Centaures : هم سكان جبال تِسالي باليونان، تقول عنهم الأسطورة انهم استحالوا إلى أنصاف إنسان وحصان.

فإذا إلتزمنا الأمانة والحس السليم في فهمنا لأفكار ماكيافيل المتأرجحة، سنعتبر العالم رقعة نرد يتبارى عليها فريقان، أحدهما يمتاز بالنزاهة، والآخر بالخداع والمكر، وعلى الأمير المنخرط في هذه اللعبة أن يحتاط من الوقوع في الخطأ، وفي نفس الوقت عليه أن يتعرف هفوات غيره والأخطاء بنفسه دون مساعد له، بل وأن يتعلم اللعبة دون معين أيضاً، محاولا أن لا يسقط ضحية الآخرين.

ولنعد الآن للأسباب المخربة لسياستنا. يقول ماكيافيل: «إن جميع الناس مجرمون مناقضون للعهد في جميع الأوقات، لذلك لست مرغماً لتحافظ على إلتزامك نحوهم». تبدو الآن مفارقة بين ما سبق أن أكد عليه أثناء حديثه عن الكتمان وما جاء الآن في القول السالف الذكر: كيف نوفق بين القولين؟

يتصف الناس في نظره بالإجرام، وهي نتيجة ترى العالم مشكلا من المجرمين، لذلك يكون من الحتمي أن تكون طبيعة الأمير مبغضة للبشر Misanthrope حتى لا يرى بشراً صالحين.

لنطرح الآن سؤال ماكيافيل بصيغة أخرى: إذا لم يفترض ماكيافيل عالماً مليئاً بالمجرمين والقتلة علم سيؤسس حكمته الشنيعة؟

يمجد ماكيافيل البشاعة كثيراً لإلتزامه بهذا الأدب، فلما نفترض بشراً بطبيعة خبيثة لا يحق لنا تقليدها؛ وقد كان Cartouche لصاً ينهب ويقتل من صادفه فاستبعدت سيرته حتى لا يستلهمها الناس، وقد أكد أحد المؤرخين بقوة على اللجوء إلى الأمراء حين ينعدم الشرف والفضيلة، لأنهم مصدر الفضائل، وبعد تبريره لضرورة الجريمة في الحياة السياسية اجتهد في تنويع طرق ارتكابهابهدوء وبرودة الدم، يقول: «إن من يجيد فن الإخفاء يجد الناس بسطاء»، على ماذا يتأسس هذا القول؟ يريد ماكيافيل أن يقول: أنت غبي وأنا ذكي لذا وجب علي الفتك بك، وهو قياس استند إليه مريدوه في جميع المناسبات.

إن السياسة كما يفهمها ويدافع عنها ماكيافيل تيسر الجريمة وتستنبط المكر من الشرف، وقد جسد مبتغاه هذا سيزار بورجيا، ذلك الخائن الماكر والمجرم الكبير.

كما اجتهد ماكيافيل في العثور عن الأمثلة الموضحة للمكر، لكن من أين له بها؟

لقد عاد لتاريخ الباباوات الحافل بأنواع الخداع كالبابا ألكسندر VI، هذا الرجل المخطئ الملحد في زمانه، والذي نجح فعلا بخياناته ومكره في معرفة ضعف تفكير الناس وسذاجتهم، وإن لم يكن ذلك السبب المباشر في نصره، لكن الفترة التي عاش فيها عرفت مفارقة الطموح الفرنسي والإسباني، والانشقاق بين العائلات الإيطالية، وضعف لويس XII والأموال المتدفقة من المستعمرات.

وفيما يخصنا نحن، نعتبر الخداع عيباً في السياسة وإن أخد شأوا فيها، لقد قال الكاردينال Mazarin في حق السيد Don luis de Haro بأنه كان مخادعاً في سياسته. وأورد M. de Fabert [5] عن مزاران مقطعاً من حديث يقول فيه: «لا يمكنني أن أخون دوق سافوا، رغم انطلاقه من الترهات، لأنني معروف عند الناس باستقامتي وعدلي، وهو ما يدفعني لتحقيق السلام لفرنسا».

لا أتحدث هنا عن النزاهة والفضيلة بشكل مطلق، بل عن نزاهة وفضيلة الأمراء وحدهم دون سواهم، لذا أتوجه بالقول لتوضيح معنى السياسة المبنية على المكر وخداع النّاس بخبث، والحاصل أنه من يخدع الناس مرة يفقد ثقة جميع الأمراء دوماً.

وهناك نقطة أخرى تفوق الثقة أهمية كالتناقضات التي يعيش عليها الأمير، فلما كانت ترغب الكنيسة الرومانية في تجنبها تنشر يوميات تجمع عيوب الرهبان ومزالقهم بعد وفاتهم بمئة سنة تقريباً، ترفقها بشهادات

1 - Abraham de Febert: مارشال فرنسي، ازداد بميدز 1599.

معاصريهم المضادة، ورغم كل ذلك تشبث الناس بفكرة القداسة ودافعوا عنها.

اعتقد أيضاً أن هناك ظروفاً ينقض فيها الأمراء اتفاقياتهم، لكن إلغاءها في نظري لا يتم إلا بالحذر الشديد وإخبار الحلفاء في الوقت المناسب. وأما عن كتاب ماكيافيل فالتناقضات واضحة فيه وضوح الشمس، يقول مثلاً: «عليك أن تظهر للناس رحيماً مخلصاً ومتديناً وأكثر إنسانية ومستقيماً، ويجب عليك أن تتصف بهذه الصفات فعلاً أمامهم»، وبعد استرساله في الحديث يرد قول مناقض للأول، يقول فيه: «انه لمن المستحيل على الأمير أن يعرف الطريقة التي تجعل الناس خيرين، ولذلك عليه أن يسرع للحد من الهوى وحب الثروة، وأن لا يبتعد عن الخير، وأما إذا فرضت عليه الضرورة ذلك عليه أن يظهر كذلك».

من الواجب علينا فضح هذه الأقوال، لأن من يفكر بهذا الشكل المتناقض لا يفهم ما يفعل وما هو عليه، كما لا تستحق ألغازه هذه أي مجهود لفهمها، وزاد الطين بلة لما ربط في آخر هذا الفصل بين الجحود والنفاق لما تتكاثر مشاكل الأمير، إنني على عكس من يمتلك أحاسيسا قاسية، فالأهم بالنسبة لي هو تجاوز أخطاء النظر التي لا تنبع من الأعماق، وأخيرا، قد نفضل أميراً جاحداً يسعد شعبه على أمير مجرم متمرس لا يحب إلا نفسه.

الباب التاسع عشر

إذا كان التفكير النسقي نتيجة اختيارية بالنسبة للعقل البشري، فإنه تفكير يوهم المغرمين به المتبجحين ببعض الأفكار التي ينطلقون منها كأساس لآرئهم، ويظهر لي أن اشتغالهم على الأفكار المسبقة يجعلهم في عداد الأموات نتيجة بحثهم الدائم عن الحقيقة.

سنصادف دائما الأخطاء حتى ولو علونا السماوات الكونية صحبة الفلاسفة القدامى أو ركبنا عاصفة ديكارت أو انغمسنا في انسجام الفيلسوف ليبتنز [1] لأن الأخطاء من العقل النسقي نفسه.

حاول بعضهم في الأنساق الفلسفية، وضع عدة خرائط لدول خيالية لا يعرفون عنها إلا الأسماء، كأسماء البلدان والمدن وبعض الوديان، وهي أسماء من وضع خيالهم بدورها، والحاصل أن خرائطهم تجلب الخزي للجغرافيين، وإن تم لبعض الفضوليين أن زاروها بالقياس والتجربة ستكون حسرتهم شديدة وخيبة أملهم كبيرة لما يتبينون الاختلاف الحاصل بين ما يعتقده الفلاسفة والواقع المجسد في الوديان والمسافات الفاصلة بين الأماكن والمدن والبحيرات.

1 - لايبنتز Leipnetz : فيلسوف ورياضي ألماني (1646 - 1716)، كتب جميع مؤلفاته باللاتينية والفرنسية.

ليس الجهل جنونا مفضلا لدى الفلاسفة وحدهم، بل انتقل إلى أهل السياسة أيضاً، ويعود ذلك لما أفشى ماكيافيل للأمراء أسراراً وحكماً ووصايا تجمع بين المكر والخبث. إنها أفكار مسبقة في النسق المختزلة لكل الشرور التي نقب عنها هِرقل[2]، لكن، هل هناك من شيء أكثر بساطة وأكثر ملاءمة للأمراء من العدل والطيبة؟

من جانبي، لا أعتقد بوجود غيرهما، ولولا العدل والطيبة لفقدت السياسة قيمتها.

قد يقدم أحد الأمراء على الخيانة والمكر والاستبداد مخافة ضياع عرشه، فيجد في الجمهوريات والملكيات المطلقة التي وردت عند ماكيافيل دروساً مناسبة، وهو ما يدفعنا لطرح السؤال التالي:

كيف يتأتى لفرد عادي أن يطيح بأمير شرعي؟... والحاصل أن أمراء أوربا قد أعرضوا عن نصائح ماكيافيل، بعدما جمع أمثلة لا تصلح في جوهرها إلا لقطاع الطرق.

وعلينا أن نبين هنا تناقضاته الجلية في هذا الفصل، فقد زعم أن الأمير السلاب ينال بلا حشمة من زوجات الناس، وقد استعاد بهذه الصورة ما كان يعرف في روما القديمة حينما لقب Jule César [3] بزوج النساء الروميات. كما كان الملك لويس XIV [4] يحب النساء كثيراً، وكان الملك أوگست Auguste I ملك بولونيا يقوم بالزواج الجماعي.

والملاحظ أن هؤلاء لم يبغضوا لحبهم للنساء، فإذا اغتال الناس القيصر يوليوس فلأنه اغتال حرية روما بالاستبداد والطغيان ووحدانية الرياسة. قد تعترضون على كلامي هذا بطرد الملوك الثلاثة من روما إرضاء لحشمة

---

2 - هرقل Hercule : بطل روماني.

3 - Jules César : رجل دولة روماني (100 - 44 ق.م).

4 - لويس VI : ملك فرنسا (936 - 954).

لوكريس Lucrece [5] وعواطف ماكيافيل الخبيثة، لكن السبب لا يعود لحب Tarquin للوكريس بل إلى العنف المسيطر في النظام الروماني الذي أيقظ في ذاكرة الشعب الجرائم التي ارتكبها التاركيون Les Tarquins [6] منذ سنين خلت.

لا أريد تبرئة أي أمير لأن الأعمال التي ذكرناها سابقاً مرفوضة من الوجهة الأخلاقية، لكن الناس تنظر للحب الصافي والود العميق بين الأمراء ضعفاً، وما يثير السخرية أكثر من اللازم هو صدور النصيحة عن طبيب الجرائم القائل بدعوة الأمراء للتقشف في النساء؛ فهل يعود ذلك لفلورنسيته أم لنزعته الياسوعية؟ وتابع المؤلف استرساله في نصح الأمراء مؤكداً على عدم ظهور الأمير متقلب الأطوار أمام الناس، بل بعزم وإجلال وحزم وهي صفات بليغة دامغة. لكن لم ركز عليها؟ ولِم لا تكون عين الذات؟

إذا لم تكن الصفات المذكورة دماً في عروقهم لن يستطيعوا تقليد المتصفين بها فعلاً، وهو ما يجعلهم على وجهين متنافرين متناقضين ينفلت أحدهما منهم في الوقت الذي يتظاهرون بغيره.

كما دعا ماكيافيل الأمراء في نصيحة أخرى إلى قطع الطريق أمام كل من يرغم الأمير على تغيير رأيه، والظاهر انه قول صحيح لما نرى أن الطريق إلى الحكم غير مفروشة بالورود، على الأقل بالنسبة لأقلية منهم، والدليل على ذلك نجده شائعاً بين الناس في مدينة أمستردام، فقد تناقل الناس هناك حكاية تقول: «تحكم البلاد قطة»، فتساءل الجمهور: كيف ذلك؟ وكيف حدث؟

كان بأمستردام مجلس يرأسه عمدة، وكان للعمدة زوجة تشير عليه بآراء وأفكار، ونظراً لحبه لها كان ينفذ أوامرها، وكان لهذه الزوجة خادمة

5 - Lucrece :

- امرأة رومانية كانت سببا في سقوط المملكة الرومانية،

- Titus Lucretius Carus: شاعر لاتيني توفي سنة 55 ق.م

6 - تاركان Tarquin: خامس ملوك روما (616 - 579 ق.م)

تشير عليها هي الأخرى، وكان للخادمة قطة تتملك عقلها ووجدانها، وتبعاً لهذه السلسلة قيل أن القطة تحكم أمستردام.

هناك فرص أخرى أو مناسبات يغير فيها الأمير سلوكاته بالنظر إلى أخطائه السابقة، رغم أن البابا يزعم غير ذلك، فقد رأي أن الأمراء معصومون من الخطأ كالأنبياء، وهو رأي يستوجب العزم الشديد من قبل الأمراء اتجاه أحاسيسهم لتصحيح ذريتهم باستمرار، وقد يذكرنا هذا السلوك العنيد المتصلب بما عرف عن شارل Charles XII [7] من عناد كاد أن يتسبب له في الهزيمة أثناء معركة Herder[8] . وبعد ذلك انتقل ماكيافيل للحديث عن الأحلاف والمعاهدات، يقول في ذلك: «على الأمير أن يتباطأ في عقد الأحلاف لأن عقدها يتم وفق قوة جيوشه». يبدو لي هذا الأمر في غير الصواب لأن الجيش خاضع للأمير والأحلاف تتم وفق استقامة الأمير أو نفاقه أو مكره. ويكمن التناقض هنا في كون الرغبة السياسية تهدف إلى خلق «أمير محبوب من قبل رعاياه ليضمن تفادي المكائد والدسائس والمؤامرات». لكنه أكد في الفصل السابع عشر على «أمير يخافه الجميع، لا ينطلق إلا من آرائه هو».

يضعنا هذا التناقض في حيرة تجعلنا متسائلين عن الإحساس الصادق الذي ينطلق منه ماكيافيل، ولكن الظاهر أن ماكيافيل كالكهنة يتكلم لغة غامضة تقبل أي تأويل ممكن لابتعادها عن الوضوح.

أثبت بلغة واضحة صعوبة ارتكاب الدسائس والمؤامرات، وإن كانت تعود في أساسها للتعصب الذي يكون سبباً في ارتكاب الجرائم. ورغم ما قاله في حق المجرم حين قال: «يكون مرتكب الجريمة في فزع كبير لخوفه من العقاب المفروض عليه من قبل الملوك المحاطين بهبة وجلال فضلاً عن سلطة القانون» التي تحميهم، فإن المؤلف فاقد لناصية السياسة الجيدة، ويتجلى

---

7 - شال VII : امبراطور ألماني، ازداد بيروكسيل سنة 1697 وتوفي بميونخ سنة 1745.

8 - هردر Herder : كاتب ألماني وهو غير مقصود هنا.

ذلك في وضوح للجميع حين أعرض عن الكلام في ماهية القوانين واقتصاره على حديث الاستبداد والجور.

يشبه ماكيافيل إلى حد بعيد البروستانتيين، ووجه الشبه بين هؤلاء هو الإكتفاء بالحجج الجاحدة والإعتناء بها أكثر من غيرها كما نجده في الجدل الدائر بين الكاثوليك والبروتستانت حيث يراهن كل منهما على أن لا يصير غيره. ونفس الطريقة نجدها عند ماكيافيل لما نصح الأمراء بكسب حب وعطف الشعب والفوز برضاه ورضا كباره، والتخلص في نفس الوقت من أسباب الحقد والشنآن عن طريق حكام يفصلون فيها، وكان قد استلهم في التحليل نموذج فرنسا التي تبلغ نموذج الإنجليز المعروفة بحكمتها، حيث نجد البرلمان فيها حكماً بين الملك والشعب رغم السلط المتوفرة لديه والتي لا يستغلها إلا في الخير.

أجاب ماكيافيل عن اعتراضات كثيرة لما رام الحديث عن أباطرة الرومان منذ Marc-Aurele إلى عهد Gordiens [9]، والملاحظ أن التحولات السياسية في الامبراطورية الرومانية كانت تفضي دائماً إلى اللاشيء، فمن المؤكد أن الامبراطورية قد عرفت القلاقل والإضطراب منذ أن نكل بالبروتوريين، ومنذ ذلك الحين استهدفت حياة الأباطرة بل أصبح قتلهم من الأمور المعتادة في البلاد كعوائد القتل المنتشرة بين الناس في أمريكا: حيث يقتل الإبن أباه أو يشنقه دون رقيب ولا حسيب.

هناك ملاحظة أخرى تناقض ما قاله ماكيافيل في حق Pertinax [10]، يقول في حقه: «على الأمير الراغب في الحفاظ على عرشه أن يتجنب ألفاظ العدل والطيبوبة». لا تستطيع قولته هذه أن تخرجنا من الزمن الرديء، كما لا تستطيع طيبوبة الأباطرة نجدتنا أو عقابهم، لقد ورث صاحبنا التفاهة كلها عن ماركوس أوريوس، وقد ظهر ذلك لما تمادى في احتقار الشعب والجنود، وزاد منه حين ألح على قيادة الجميع إلى الموت والهلاك.

9- Gordien : اسم أطلق على ثلاث أباطرة رومانيين.

10 - Pertinax: امبراطور روماني (193 م).

صحيح أن هناك أشخاصاً لا يستحقون أي تقدير كـكركلا Carcalla القاسي[11] الذي أتلف للجنود ما جمعه أبوه لهم من أموال وذخائر بغاية صرف نظرهم عن موت أخيه جيتا Geta، دون أن ننسى موت Macrin [12] ومقتل Heliogabale [13].

اعتقد ماكيافيل أن موت ألكسندر جاء نتيجة تخنثه، لكن الأمر يعود إلى عودته لإقامة النظام في الجيش المتلذذ بالفوضى، وقد تابع Maximin [14] نفس النهج الذي أفقده العرش، وقد زعم ماكيافيل في هذا أن السبب هو دناءة أصله المنحط وفظاظته الزائدة عن اللازوم (...).

لنعد الآن لقولة ماكيافيل الشهيرة، التي يقول فيها: «إما أن تكون أسداً مفترساً أو ثعلباً ماكراً»؛ لقد كان سفير Sévère [15] متمتعاً بصفات عديدة حميدة، وقد فوض أمر العدالة لبلوسيان Plautien[16] كما فعل تيبر مع سجان، لكن ماكيافيل رأى أن سفير ارتكب خطأ لما أقدم على هذا السلوك، وكما يحدث عادة لكل محلل سياسي فإن ماكيافيل سقط في أخطاء

---

11 - كاركلا : ماركوس أورليوس أنتنينوس، امبراطور روماني (211 - 217 م)

12 - Macrin : امبراطور روماني (164 - 218 م) حكم سنة واحدة.

13 - Heliogabale : هو ماركوس أورليوس (204 - 222 م)، كان امبراطور رومانيا بين 218 - 222.

14 - ماكسيميان Maximien:

– ڤالريوس، امبراطور روماني (250 - 310).

– ماكسمان الأول: كايوس جوليوس ڤروس (173 - 238)، امبراطور روماني (235 - 238 م).

15 - Sévère:

– آفلاڤيوس: امبراطور روماني (306 - 307 م)، سمي القيصر.

– لبيوس: امبراطور روما الغربية (461 - 465 م).

– ألكسندر: امبراطور روماني (222 - 235 م)

16 - بلوسيان Plautien : هو ماسيوس بلوتوس، شاعر هزلي لاتيني 254 - 184 ق.م.

التعليل، حيث رأى أن شهرة سڤير غطت الاغتصاب والاستبداد، بينما تربع سڤير على العرش بمساعدة الامبراطور أُدريان Adrien [17] الذي سبق أن فرض النظام في الجيش، وهي النقطة التي لم يدركها ماكياڤيل جيداً، فاللاحق يرث عن السابق إما الفوضى أو النظام. وكانت له أخطاء أخرى حين عارض إلتحاق الجنود التابعين لـنِجر Niger بالبارتيين معلمي فن الحرب.

لا ينبغي للأمير أن يحصر تفكيره في فترة حكمه، بل عليه أن يتنبأ بما قد يلحق سلفه من نتائج أخطائه، مما يجعلنا نرى في الاستنتاج الذي خرج به ماكياڤيل عن شڤير ومارك أخطاء لأن الاقتصار على رد المشكل الذي لحق بهما غير كاف حين حصره في الجيش.

كيف نجمع بين نماذج متعددة كسيزار بورجيا وسڤير ومارك أوريل؟

إن الجمع بين هؤلاء هو التداخل بين الحكمة الخالصة والفضائل من جهة، والبشاعة الخالصة والمكر من جهة ثانية. فقد كانت نهاية سيزار بورجيا متناقضة مع مكره رغم ما عرف عنه من غلظة على عكس أوريل الفيلسوف الحاكم الصادق الذي ظل مخلصاً لحكمته إلى مماته.

17 - أدريان Adrien :
- رجل دين 303 ق.م.
- أدريان الأول: بابا من 772 إلى 795 م للكنيسة الكاثوليكية.
- أدريان الرابع: بابا من 1154 – إلى 1159م للكنيسة الكاثوليكية.
- أدريان السادس: بابا من 1522 إلى 1523 م للكنيسة الكاثوليكية.

البـاب الـعـشــرون

يظهر جانوس Janus[1] في الديانة الوثنية بوجهين يمثلان المعرفة المكتملة عن الماضي والمستقبل. فإذا كانت صورة جانوس مجازية فهي تنطبق إلى حد ما على الأمراء، لأنه من الواجب أن تشمل معارفهم الماضي حتى يوفر لهم الدروس في فن القيادة واختراق المستقبل بالحدس وتبين ما يمكن أن يترتب عن كل فعل. إذن، فدراسة الماضي ضرورية للأمراء، إذ تخول لهم فرصة الإطلاع على حياة الفضلاء، ويمكن أن نقول بأن الماضي مدرسة للحكمة، في حين أن دراسة المستقبل تلهم الحكام وتعطيهم ميزة التنبؤ بما يخشونه ليتجنبوه، أو لنقل إنه مدرسة الحذر والحيطة واليقظة التامة، دون أن ننسى مجاز البوصلة والبركار الملازمين للبحارة وربان السفن. وهناك ميزة أخرى توفرها دراسة التاريخ تكمن في مضاعفة المعلومات وإغناء الروح، وأما دراسة المستقبل فإنها تفيدنا في تحليل ألغاز القدر ومباشرة التوقع مع الاستعداد لمواجهته.

يقترح ماكيافيل في هذا الفصل خمس مسائل متعلقة بالغزو، والهدف منها توطيد الإستعمار إن أحسن الأمراء استعمال الحذر والذكاء المبنيين على دروس الماضي واستشراف المستقبل.

1 - قانوس Janus : آلهة رومانية قديمة، تحرس الأبواب، تظهر للناس بوجهين.

المسألة الأولى:

هل ينزع الأمير المنتصر الأسلحة للمنهزمين أم لا؟

لقد تغيرت الحرب عن العصر الذي عاشه ماكياڤيل، فقد انمحى وجود الجيوش المستأجرة واكتفى الملوك اليوم بالجيوش الوطنية. ومن غير المستبعد الآن أن يحتقر الناس جيشاً مكوناً من الفلاحين الذي قد تنخرط فيه البورجوازية في بعض الأحيان للدفاع عن دولتهم. يلجأ المحاصر للمدن إلى القنابل الحمراء Boulets، والمتفجرات رغم استحسانه لتجريد الناس من السلاح في أول الأمر.

حين غزا الرومانيون انجلترا واجهوا الإضطراب والهيجان الشعبي المهدد لسلام الدولة إلا إذا إستثنينا الشعوب الكورزية، ويبدو من خلال هذا المشهد المضطرب في البلاد أن السيادة مرتبطة باللجوء إلى نزع الأسلحة والدخول في سياسة الهدنة مع الشعب رغم ما يتمتع به الكورزيون من حب للحرية.

المسألة الثانية:

تتعلق هذه المسألة بثقة الأمير؛ بمعنى: هل يمنحها الأمير لمن ساعده في أول مرة للوصول إلى الإمارة الجديدة أم يمنحها للذين كانوا أوفياء للأمير الشرعي؟

لما يتم غزو دولة ما بمساعدة خيانة مواطنيها يكون من الصعب وضع الثقة فيهم، حيث تطال خيانتهم الأمير الجديد حين يجدون الفرصة سانحة لذلك، فهم على عكس المتشبثين بأميرهم الأول الذين يعطونك الدليل على جدهم وكدهم مما يجعلنا نظن أنهم سيبقون على حالهم، لذا فإن عول عليهم الأمير الجديد لن يسيئوا إليه والدليل على ذلك هو الثقة الماكرة والحذر الشديد التي يتعلمها الأمير من دروس الحياة.

لنفترض في جانب ثان شعوبا مضطهدة من طرف حاكم مستبد دفعها طغيانه للإستنجاد بأمير ثان دون اللجوء للدسائس والغدر:

على الأمير في هذه الحالة أن يستجيب لهم فوراً وإلا احتقروه فيما بعد ولنا في Guillaume أمير Organe نموذج الأمير الذي حافظ على صداقة متميزة مع من قدم له مقاليد الحكم في انجلترا، في حين انضم المعارضون للملك جاك Jacque.

أما في إمارات الانتخاب، نجد أساس الانتخاب المكر والتحايل والدسائس، وهي فرصة لشراء الضمائر المعارضة كما هو الحال مع المؤيدين.

نجد في بولونيا صورة صادقة عن كل ما قلناه، حيث يقوم التزوير من أجل الوصول للحكم في سوق عمومي، لكن عطايا الملك وهباته تحاول ابعاد كل معارضة عن المنافسة، فالملك كفء لربح تعاطف الأسر الغنية بواسطة الموظفين والإداريين عن طريق الوعود التي لا تنقضي، وبما أن البولونيين معرضين عن الصالح العام فإن الجمهورية كبرميل الدنايديين Danaïdes[2] ، والحاكم الذكي في نظرنا هو من يحرس على ثروته ولا يعطي شيئا إلا في المناسبات.

تتناول المسألة الثالثة أمن الأمير في المملكة الوراثية. فمن الأفضل لكل أمير وارث تجنب العداء مع الرعية، فقد كان لهذه المسألة بالذات تأثيراً كبيراً على الحكم في فلورنسا أيام سلف ماكيافيل (...).

على الجمهوريات أن تخلق الإنسجام بين أعضائها، أقصد حكومتها، عوض الغيرة والحقد الذي يجعل الحكومة الجمهورية تنقلب إلى مونارشية. وعلى وجه العموم، فإن الانشقاق ضار بالحكومات إذ يعتقد البعض أنه في صالحهم، لكن الخاسر الوحيد في كل ذلك هو الأمير الذي تمس مصالحه بسوء كبير، كما ينمي الانشقاق المنظورية والتعارض.

ينسجم ما قلته في المسألة الثالثة مع ما سيأتي من كلام في المسألة الرابعة، إلا أنني فضلت مناقشة علاقة الأمير بالعصب والزمر، بمعنى: هل يراهن على صداقاتها له أم لا؟

2 - دانيد Danaïde: أسطورة يونانية، وهو اسم يطلق على خمسين فتاة بنات الملك أرغوس دانادوس.

لا يصلح العناد إلا مع الوحوش الغريبة، أما العلاقات الإنسانية فإنها تتنمى وتكبر بالعلاقات والصداقات لا بالتحدي، فلننظر للأمراء الذين لهم الصداقات وكثرة الأصدقاء سنلاحظ أن سعادتهم بادية عليهم في أبسط سلوكاتهم، يعم بلادهم الهدوء، وأكثرهم سعادة من فاز بحب الشعب له.

وفي المسألة الخامسة يطرح ماكيافيل سؤالاً مهماً يقول فيه: «هل يتحتم على الأمير أن يتوفر على قلاع وحصون أم لا؟».

لقد سبق لي أن أبديت ملاحظات في الموضوع في الفصل العاشر من هذا الكتاب لما تطرقت للأمراء الصغار، وأما الآن فسنعود من جديد إلى ما يهم الملوك من سلوك ومسلكيات.

عاش العالم في عهد ماكيافيل قلقاً عاماً، كما عرق اجتياح روح الثورة والتمرد والعصيان، حيث لا نرى إلا المدن المتمردة والشعوب الثائرة، وترجع الأسباب في ذلك مباشرة للحروب التي ترغم الأمراء على مهاجمة البلدان ومحاصرة المدن. ومع انتهاء هذا العصر لم يعد الحديث عن التمرد كأن الشعوب في استراحة بعد عناء وتعب طويل، الشيء الذي يوهمنا بلا جدوى الحصون والقلاع.

يبدو لي اجماع الأمراء حول أهمية الجيوش والقلاع، فإن كان الهجوم بالجيوش فإن القلاع تخلص الشعوب من المتاعب نظراً للمدافع الموضوعة فوق أسوارها.

لا نستخلص أي شيء من الحروب الأخيرة بين الإمبراطور وفرنسا نظراً لنقط القوة لدى الجانبين ، رغم أن عدد الجنود الذي بلغ مئة ألف رجل، ورغم ما أسفرت عنه من نتائج كفقدان مدينتين وبعض الأراضي في البداية، إلا أنه بعد أيام قليلة استطاع العدو ترميم الصفوف من جديد ليهاجم مرة أخرى.

يستطيع الجنود في الدول الغنية المتوفرة على عدد كبير من الجنود وعلى نقط القوة أن يخوضوا معركة لفترة طويلة من الزمن قد تصل إلى ثلاثين سنة، ويمكن أن ينتصروا فيها إن كانت معنوياتهم مرتفعة.

تكون الهزيمة في الدول المفتوحة أقرب لو بادر العدو بالهجوم عبر البوادي كما وقع لألكسندر وسيزار وشارل، حيث وجد هؤلاء الأمكنة المناسبة للقيام بذلك، كما حاصر الانجليز الهند انطلاقاً من البوادي بنفس الطريقة.

كان Eugène [3] و Villars [4] و Marlborough و[5] Luxembourg أقوياء كألكسندر، لكن محاصرة القلاع تنهك الرجال لطول مدة المراقبة، والملاحظ أن الفرنسيين من بين الدول التي تعرف جيداً قيمة القلاع وأهميتها منذ عهد Brabant[6] إلى Dauphine [7]، وكان الفرنسيون يرون في القلاع سلاسلا تقي البلاد من الشر، ففي الحدود الشمالية مع ألمانيا لا يتركون إلا نقطة عبور واحدة من جهة ليون.

3 - الأمير أوجين (1663 - 1736) : كان قائداً حارب لويس XIV.

4 - ڤلار Villars: قائد عسكري فرنسي (1653 - 1734)، حارب النمسا.

5 - Marlborough : دوق أنجليزي (1650 - 1722).

6 - Brabant : مقاطعة تكونت في القرن XI بفرنسا.

7 - Duaphine : مقاطعة فرنسية قديمة.

الباب الواحد والعشرون

هناك فرق بين النصر والفوضى، فالعامة تنساق مع الشهرة لتمسكها بالمظاهر، وقد يختلط عليها الأمر للتمييز بين الثروة والإستحقاق، وأما الحكماء من الناس فإنهم يحكمون بكيفية أخرى على الأمور، يتفحصون حياة العظماء وسيرهم كالمشرحين بغاية التمكن من معرفة النوايا الصادقة والفعل العادل، ووضع الاحتمالات قبل الشروع في أي عمل، فهم لا يرغبون في إلحاق الأذى بأي كان، ولا يحكمون على النتائج إلا انطلاقاً من الأسباب وليس العكس، لا يفتنهم حب الظهور والمظاهر مقتنعين بتلازم النصر مع الفضائل، وهي خصال مناقضة لمزاعم ماكيافيل المشدد على العظمة المفاجئة.

عارض موليير Molière[1] بشدة الجمع بين التفكير المبتدل والنبل والنزاهة، وهو ما يدفعني لتمييز الرديء من الجيد في هذا الفصل حتى يتسنى لي نقض النواقص مثبتاً ذلك بالبرهان والبينة.

1 - موليير Molière : كاتب فرنسي (1622 - 1673).

قدم لنا ماكيافيل السيدين فردناند الأرغوني[2] d'Aragon Ferdinand وبرنار الميلاني Bernard de Milan نموذجين للإحتداء بهما في أمور عظيمة، وأطلق على وصيته هذه المخاطرة الجميلة.

قال Scythes[3] لألكسندر في أحد الأيام: «تمجد إبادة اللصوص لأنك اللص الكبير على وجه هذه الأرض، لقد سلبت جميع الأمم التي غلبتها، فإن كنت إنساناً ستنطلق في التفكير من ذاتك». وكان فرنائد الأرغوني يتستر خلف الدين في حروبه لتحقيق أهدافه هو، فإن كان متديناً كما يدعي فإنه قد ارتكب الآثام، وإن كان جاحداً فهو دجال مراء يمتطي النفاق، ويستغل سذاجة الشعب.

إنه لمن الخطير جداً اقناع الشعب ليحارب بضراوة بما فيه رجال الدين لأن انحطاط الإمبراطورية كان عن طريق الدين، وقد عرفت فرنسا على عهد Les Valois [4] النحس الناتج عن التعصب الديني والحماس الخاطئ.

لا ينبغي أن تمس قوانين الشعب بسياسة الأمير، كما يجب أن يتصف رجال الدين والكنائس بالحلم والتسامح، فالكتاب المقدس ذاته ينص على السلم والرحمة بالعباد التي تتماشى مع مصالح الأمراء لأنها تستأصل الحقد من القلوب وتحرر الناس من التعصب. وأخيراً ليعلم الأمراء أن وفاء العامة لا تخلقه قسوة الدين والتعصب الذي لا يعمل إلا على فتح الطريق أمام الإرهابيين نتيجة الوعود المكافئة لجرائمهم.

2 - فردناند:
- فردناند ملك أرغون (1412 - 1416).
- فردناند II ملك أرغون (1468 - 1516).
- فردناند V ملك قشتالة (1479 - 1516) ثم نابولي (1474 - 1504).

3 - Scythes: شعب يتكلم اللغة الإيرانية سكن بين الدانوب والدون في القرن XII ق.م، واختفى في القرن II ق.م.

4 - Valois:
- دولة فرنسية قديمة.
- قبيلة فرنسية.

فمن مصلحة الأمير الإبتعاد عن الصراع المجاني مع القساوسة، والذي هو في آخر الأمر حرب كلامية ترمي بالمتصارعين إلى الرعب الديني.

وأما عن النموذج الثاني الوارد ذكره أعلاه، أي: برنار الميلاني Bernard de Milan فقد كان القصد من ورود ذكره هو اتباع نهجه في المعاقبة الشديدة، وإذا كان ماكيافيل يبتغي هنا سمو الأمير ورفعته فإن ذلك يتأتى من صفاء الروح لا من الأنانية، فقد قال شيشرون يوماً للقيصر: «ليست لديك أية عظمة إلا قدرتك على إنقاد المواطنين، ولا رأفة أكثر من إرادتك للقيام بذلك».

لا ينبغي أن يمس عقاب الأمير كرامة الإنسان، كما عليه أن يضاعف المكافأة حتى تتجاوز قيمة الخدمة المطلوبة، وقد عمل ماكيافيل على وضع قواعد الإجماع في هذا الفصل، لكنه فسخها في الفصل الثاني عشر، إنه كالمغامر الذي يقول شيئاً لشخص وحين يقابل آخر يحكي له نقيض ماحكاه للأول».

نبه ماكيافيل إلى الدخول في حلف ما يجعل الأمير لقمة سائغة، وقد حدث ذلك فعلا لأمير ألماني، كما حصل يوماً للسويديين الذين هرعوا لنجدة الإمبراطور بالراين السفلى لما هاجمه الفرنسيون، وكان قد نصح الوزراء ـ الإمبراطور الألماني ـ باللجوء إلى سكان Czar بروسيا، لكنه رفض ذلك لأن المسكويين يطمعون في ألمانيا دائماً.

وخلاصة القول في هذا الباب، أنني لا أستطيع تقديم أمثلة أكثر من هذه، فإن طال عمري ستتقوى تأملاتي أكثر لأنني أتفادى الآن محاسبة الأمراء المعاصرين لي، فإما أن نعرف كيف نتكلم في مقام ما أو نصمت إلى الأبد.

تناول ماكيافيل كذلك في هذا الفصل الحياد بكيفية جيدة، وبرهن في الآن نفسه عن ضرورة الإنخراط في الأحلاف، وما نلاحظه بخصوص الحياد فقد برهنت في وقت سابق على الإهانة التي يمكن أن تلحق المحايد، وجلبه للذل لشعبه بحياده من قبل المتعاركين.

هناك طريقان للمجد، أولهما، لما يغزو أمير ما دولة ما عليه وضع حد لتهجمات جنوده، وثانيهما، أن يسهر الأمير على انتعاش الفنون والعلوم حتى يمدن الدول. ومن جهتنا، نعتقد أن الطريقة الثانية أفضل من الأولى لأن الفنون عامة ضرورية لحياة الشعوب، فمن يستطيع إنكار دور الزراعة والتجارة والمانفاكتورا، بالإضافة للعلوم الراقية كالهندسة والفلسفة والفلك والبلاغة والشعر، وكل ما نفهمه من العلوم الجميلة؟

وبما أن اقتصاديات الدول مختلفة، فإن القوي الآن هو من يمتلك الزراعة ومعاصر الخمر أو المانفاكتورا أو التجارة، وقد يحصل اجتماع هذه الصنائع في دولة واحدة. وعلى الأمراء أن يتعرفوا على مؤهلات الدولة بغاية التعرف على نمط الفنون الذي يلائم دولتهم. كان الفرنسيون مثلا يشجعون التجارة للقضاء على دولة الإنجليز، وإذا نجحت فرنسا في ذلك فإن تجارتها ستغزو عدة بلدان ومدن في الوقت الذي تضمحل فيه قوة جارتها هولندا. فإذا كانت ثروة البلاد تقوم على الحبوب والعنب فالواجب يفرض الإعتناء بالأرض والبحث عن الأسواق لبيع المنتوج، وأما إذا قامت على المانفاكتورا التي تسد حاجيات السكان، فمن الضروري فرض الضرائب على السلع حتى لا تنتقل أموال دولتك إلى دولة أخرى.

كان الشماليون الگوط والڤانداليون يغرقون السوق الجنوبية بالسلع المصنعة مسببين الكساد للجميع، فحين كانت الضيعات الشاسعة في ألمانيا والدانمارك وسويسرا في ملك أسر محددة (...). لم تكن دول الشمال آهلة بالسكان كما عليه الحال الآن، وعلى العموم فإن تزايد المطالب ضاعف من الحاجة إلى المانفاكتورة وكل الفنون المرتبطة بها، وهو الدافع المباشر لإيجاد المصادر البعيدة، لذلك ننصح الأمراء بالإعتناء بالطرق لأنها تنعش الاقتصاد وتبرهن عن كفاءة الحاكم وحكمته. وأما الفنون فهي ما يميز الحكومة الفاضلة إن ساهمت في ازدهارها، إنها ورد تحت سماء صافية وجب صيانتها من رياح الشمال التي يعود معها كل شيء حطاماً. ونلاحظ أيضاً أن شرف المملكة يقوم على الفنون التي تعيش فيها وتزدهر، فقد كان

بركليس[5] مشهوراً برجال عظماء كفدياس Phidias و Paraxitele وغيرهم ممن عاشوا بأثينا. وأما عصر أوغست فقد عرف بشيشرون Ciceron وأوفيد Ovide[6] وأوراس Horace [7] وفرجيلوس. وعرف كذلك عصر لويس الأكبر بالكورنائيين والراسنيين واتباع موليير، دون أن نغفل Les Coyples [8] و Les Boileaux [9] و Les Bruns و Les Ramondons، وهكذا لم تعرف فرنسا في عهد لويس بممر الراين، ولا لما رابض بجيوشه هناك أثناء معركة Turin حيث مات M. de Marsin بأمر من دوق أرليون، بل عرف واشتهر ذكره بالفنون والعلوم. سيزيد الملوك من سعادة الناس إن شجعوا المعارف والتثقيف بها. قال شيشرون للقنصل الروماني يوماً: «تحيي الفنون في الشباب السحر والجمال، وبها يتمتعون بشهرة وعافية، وأما الجهل فلا يجلب إلا المحن والخزي لنا وللآخرين». وكان لورو دو ميدسيس Laurant de Medicis إنساناً جليلا صانعاً للسلام في إيطاليا لما بعث العلوم والمعارف، واستحق ثقة الأمراء في إيطاليا وكأنه ورث ذلك من مارك أوريل امبراطور الرومان الشهير المعروف بحبه للفلسفة وتعاطيه لها، كان حكيماً لا محاربا جامعا بين الممارسة المضنية للأخلاق مع مهنته. ولنختم هذا الفصل بحكمة مأثورة تقول: «تقود العدالة إلى معبد الكون حيث نجد الخيرين قساوسة».

---

5 - بركليس Periclés : رجل دولة أثيني (495 - 429 ق.م) رئيس الحزب الديمقراطي في 461 ق.م، انتخب رئيساً حربياً لمدة ثلاثين سنة، اهتم بدمقرطة الحياة السياسية، كان صديق فدياس، حارب الفرس واسبرطة.

6 - أوفيد Ovide: بوليوس أوفيدوس ناسو، شاعر لاتيني عاش في (43 ق.م – 18 م)، له: فن الحب، التفسخات وغيرها من المؤلفات.

7 - هوراس Horace: كِنتوس هوراسيوس فلاكوس، شاعر لاتيني (65 - 8 ق.م)

8 - Les Coyples: أسرة اعتنت بالفن بفرنسا.

9 - Boileaux : كاتب فرنسي أطلق عليه Boileaux-Despréaux، ازداد بباريس سنة 1711.

الباب الثاني والعشرون

هناك نوعان من الأمراء، نوع يرى بعينه ويباشر الحكم بنفسه، ونوع يعتمد الحس السليم الذي يتوفر عليه الوزراء، وهو بذلك يترك المجال للمتنفذين المؤثرين في الدوالب.

نعتبر النوع الأول روحاً للدولة، إذ يحمل الأمراء الأوزار كما تحمل الأرض الأحياء والأثقال، يباشرون أمورها الداخلية، وهم مصدر القرار والأمر فيها، ومنبع القوانين والمراسيم، يتحولون إلى قضاة فعليين مكان الموظفين، وإلى قواد للجيوش ومقتصدين، وبلغة جامعة إنهم على علاقة بما له علاقة بالسياسة، يظهرون للآخرين على صورة إله بجدهم وكدهم لأن وظيفة وزرائهم محدودة بأداتيتهم أو لنقل أن الوزارء أدوات في يد رجل حاذق ونبيه. وأما أمراء الطينة الثانية فهم أغبياء لأن دولتهم على وشك الهاوية لولا حكمة الوزراء وحيويتهم، إذ يعملون على تلافي النقص الموجود البين على أميرهم. والظاهر أنه في هذه الحالة يكون الوزير عضواً من أعضاء الأمير لا يعمل إلا على إبراز شبح الأمير وجلال الملكية. فإذا كان اختيار الوزراء في الحالة الأولى يعمل على التخفيف من عبء الأمير دون تأثير على سلامة الشعب، فإنه في الثانية مرتبط باختيار أفضل الوزراء من أجل الشعب والأمير معاً. كم يستعصي الأمر ويعسر اختيار الوزراء إن وجد الأنانيون الطماعون، أولئك الذين يجيدون لعبة الإخفاء أمام أسيادهم مما يضع عدة

عوائق أمام الأمير تجعله متناقضاً أمام الشعب لأنه لا يستطيع إخفاء طمع هؤلاء بدوره عن الشعب. ومن هؤلاء من يتفنن في المكر حيث لا تظهر صورته الحقيقية إلا بالمكر المتبادل، فالملوك لا يعرفون الناس كما هم في حالتهم الحقيقية لكن كما يظهرون ويبدون أمامهم، فالرجل الذي يقيم الصلاة في غياب الأمير ليس هو نفس الرجل المقيم للصلاة في حضوره، وليس هو حين يجتمع بأصدقائه، والحكيم في الناس مجنون في بيته، فلهذه الأسباب لا يفتح الأمير قلبه للناس.

إن ما ركزنا عليه لحد الآن ليس سوى قطرة من محيط، لأننا لم نتعرض بعد لما يمكن أن يحدث للأمراء كما حدث لـبنلوب Pénélope[1] مع جواري القصر، ولذلك ننصح الأمراء بالاستفادة منه والانتباه إلى منادميهم البخلاء المستغلين لمثل هذه الظروف.

لنتأمل جميعاً ما حدث لـ Sixe-Quinte عندما قرر التعرف عن السبعين كاردينالاً، فمن هؤلاء من كان ينتظر الفرصة ليظهر ما ليس فيه بغاية التقرب منه، ولم لا وهي الفرصة الوحيدة السانحة لذلك! وعلى العموم فسياسة الوزراء وسلوكاتهم مبنية على النوايا. فالمتظاهر بالفضائل قد يتنصل من مظاهره في أية لحظة. لم يتحدث الناس قديماً في روما بسوء عن التبريين ونيرون وكالگولا قبل وصولهم للحكم، وقد لا يحس الناس بجرائمهم إن اختاروا لحظة ارتكابها.

هناك من يتظاهر باللطف بالرغم من روحه الشريرة وطبعه الجاحد، وعلى الأمير أن ينصب أصحاب العواطف الرقيقة للتكفل بأمور الدولة داخلياً، في حين يعهد بالأمور الخارجية للأذكياء.

وبما أن غاية كل أمير هي الانضباط، يكفيه في هذه الحالة استقامة الوزراء ومكر السفراء المضللين بحججهم الجيران، ولما كنا نحس في اعماقنا ببصيص من الأمل كان لابد من التصدي لطغيان الكبار وتجبرهم، وأن نعلم الوزراء العقاب مع الذنب لأنهم المدافعين عن مصالح الأمير.

1 - Pénélope : هي زوجة إليزا وأم تيلماك في الأسطورة الإغريقية، ترمز للإخلاص والوفاء.

يرتبط نداء العدالة بالحكمة في العالم كله، وليس من العدل وضع الوزراء في ورطة لأن هناك من يسقط الحكومة بشفافية كبيرة، كما يعاقب كل سلوك شاذ وطائش، وعليه نجدد دعوانا للأمراء كي يتعرفوا عن الوزراء على مر الزمن، فإذا كان الحكام فلاسفة لن يصيبهم الضجر من غيرهم لتفكيرهم الطويل العميق الذي يجعلهم مقتنعين بضعف المخلوق البشري ونقصان طبيعته، فالوزراء كالموسيقيين يتقنون شيئاً دون شيء، ولهم مهارة في جانب دون آخر.

الباب الثالث والعشرون

يعج التاريخ عامة والأخلاق خاصة بالتأليف المرشد والناصح للأمراء، والموبخ والمقوم لسلوكهم إن جانبوا مسلك الفضائل، المبين لضعفهم وأخطائهم، وانسجاماً مع نورها العميق تطبعنا على حب الحقيقة وحب الأمراء المدافعين عنها، المتعودين على سماعها والإصغاء إليها. فلما كانت الكرامة أساس الفضائل وطريق السعادة في العالم أوصينا الأمراء بالتحلي بها حتى يتحقق لهم النصر دون مقابل كالمدح أو الذم، وبالإجتهاد في محاربة المدح لأن جاذبيته تعارض الكرم الفعلي، فالأمير المتغافل لكرامته غبي متهافت على الملذات دون مبالاة بغيرها.

صحيح أن المدح مرغوب عند الطغاة المستبدين، ولعمري أنه ليزدنهم عيباً إضافياً في الوقت الذي يسعون لانتزاع اعتراف الناس واحترامهم لهم، ويسعون كذلك من خلاله لاغتيال أصوات غير أصواتهم. وأما فيما يخص التملق فهو كالسم المتضاعف باستمرار لأنه يسرع هلاك الأمراء إن إلتصق بشخصيتهم، فقد حاربه عقلاء الأقوام ورموا بالمتزلفين ملء جهدهم في النار. فالأمير الهاوي للتملق بطيء الفهم سريع الإيمان لأن المتملق من الناس لا يزعم في حضرة الأمير إلا ما يرغبه الأمير، وإذا تمادى في المدح والإطراء على الأمير أن يذكره بعيوب نفسه حتى يستفيق من غفوة الحديث الزائف. فكم أميراً هلك بسبب التملق الزاحف تحت الورود كالأفعى!

إن محتقرالكذب محب الحقيقة، كما يسعد بمواجهة غيره له بها، فهو لا يبتغي غير المدح الشفاف الذي يتميز ببصيرة بعيداً عن الخداع، ولكي نتأكد من ذلك علينا أن نفكر في حال الشعراء المنقلبين إلى مؤرخين.

كيف يتلقى رجل من كبار القوم أو بطل أو أمير الحقيقة من صديقه (...)؟

إن الأمراء الذين وصلوا الإمارة بعدما كانوا عاديين يتذكرون دائما أصلهم الذي انطلقوا منه، لذا فهم على مسافة من الثقة في المدح على العكس ممن ورثوا الحكم وألفوه، فهؤلاء يميلون إلى المدح ويتغذون منه كالآلهة، وإن افتقدوه ماتوا جوعاً، وفي هذا الحال لا نكتفي إلا بلومهم وتنبيههم.

الباب الرابع والعشرون

تتجسد في هذا الفصل حكاية كادموس Cadmus[1]، ذلك النذل الذي زرع أنياب أفعى سامة بعد ترويضها، وبعد فترة قام جمهور من المحاربين للقضاء على الأنياب المنتشرة في الأرض إلا أنهم ماتوا جميعاً.

ترمز هذه الحكاية في نظرنا للقسوة والطمع والجشع الذي يصيب الإنسان، والذي لا يعمل إلا على تنامي الحقد في نفوس الناس مما يجعل البعض يفكر في القضاء على البعض الآخر أو يدفع فرداً للقضاء على الجميع. ومن غير المستبعد أن تنطبق الحكاية على الطموح اللامحدود الذي أصيب به أمراء إيطاليا المتصفين بكل أشكال الخيانة المتبادلة فيما بينهم.

لا نعثر في التاريخ الإيطالي من نهاية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن الخامس عشر إلا على الخدائع والمكر والمكائد والفظاظة والأحلاف المبنية على النذالة والاغتصاب والظلم، وهو مشهد مليء بكل أنواع الجرائم إن لم نقل كنزاً من الجرائم.

فإذا استهدف أمثال ماكيافيل قلب العدالة ظلماً، والإنسانية جحيماً بإصرار فإن حياة الفرد في خطر لا يؤتمن معه على مال لأن طمع الآخرين يملأ الحياة جحيما باللجوء إلى الفتك بالناس لإشباع الرغبات الخسيسة. إنها

1 - كادموس Cadmos : مؤسس طيبة الأسطوري.

سلاسل إجرام يسطو فيها الأول على مال الثاني، والثالث على عرض ومال الأول وهكذا ذواليك وكأنه نظام الغاب حيث السيادة للأقوى.

تلكم هي المأساة والوحشية التي جعلت أمراء إيطاليا يضيعون دولهم، وقد يزيد الأمر إن اتبعوا نصائح ماكيافيل المقيتة.على أن أتأمل نذالة هؤلاء الإيطاليين التي كانت وراء صراعهم المرير ضد السقوط المحتوم كما حدث لملوك نابولي.

قد يرد علي معترض منكم بأن الحديث في السياسة يحتاج الحجة والدليل بالأمثلة الواضحة لا الجدل السفسطائي.

إن الأمير وأي أمير مجبور على العدل ولو باستعمال الذوق، فإن كان ماكيافيل قد تغاضى خطاب العدل فلأنه انغمس في الترهات التي قصد تعليمها للأمراء، لذا نرى هذا الفصل خصباً بهذه السياسة التي أولجته متاهة استعصى عليه الخروج منها أو الإمساك بالخيط السحري لأريان Ariane [2] .

أتوسل لماكيافيل بكل تواضع ليفصح لنا عن ما يريد قوله من الحكمة التالية: «كل ما نريده من الأمير الجديد هو التدبير (يعني الأمير الذي وصل الإمارة بالاغتصاب)، فمن غير المستبعد أن يرتبط به الناس أكثر من الأمراء الوارثين، والسبب في ذلك هو اهتمام الناس بالحاضر لا الماضي». هل يريد من قوله افتراض المساواة بين رجلين فاضلين حكيمين؟ وهل يفضل الشعب فعلا الأمير المغتصب عن الأمير الشرعي؟ ماذا عن الأمير السفيه الماكر؟

لا أعتقد أن الإفتراض الأول هو اعتقاده، لأنه يتعارض مع الأفكار العادية والحس السليم، إنه مفعول بدون علة حتى يقبل الشعب أميراً وقحاً يؤمره على أمره دونما استحقاق مسبق يتفوق فيه على الأمير الشرعي، وإذا أردنا حلاً للإشكال المطروح سنطلب من ماكيافيل إلتزامه بتخريجات

2 ـ أريان Ariane: بنت مِنوس Minos وباسِفاي Pasiphaé، أسطورة يونانية.

السفسطائيين وحمار Buridan[3]، فمن العيب أن نرى في المغتصب بعض المزايا لأنه يبني جبروته على الظلم والاغتصاب.

ماذا سننتظر من إنسان يبتدئ بتقديم الجريمة؟ أعتقد أن الأمر كمن يتحول إلى Acton في أيامه الأولى للزواج، ولن يتبادل الحب والإخلاص مع زوجته لما بدا منها من أول وهلة.

يتهم ماكيافيل في هذا الفصل المبادئ التي ينطلق منها، فقد قال بوضوح ساطع: «دون حب الشعب وحب النبلاء وجيش منضبط يستحيل على الأمير الاستمرار في الحكم أو الوصول إليه». إنه تناقض لا داعي لإبرازه أكثر من هذا.

فلكي يفوز الأمير بعطف الشعب وولاء النبلاء عليه أن يتصف بالورع والفضائل والخير، فهي التي تمكنه من التعبير عن قدرته ليتحمل الأعباء بحكمة وتبصر.

أين يمكننا أن نجد التناقض بين ما نقول به نحن من صفات وما يقدمه ماكيافيل لأميره؟

الظاهر أنه لا محيد عن ما رسمته للأمراء حتى يفوزوا بعواطف الناس وولائهم، وليس ما قاله ماكيافيل الداعي إلى اهتمام الأمير بنفسه دون غيره وانشغاله بهمومها. فلهذا إذن، نسعى لإزالة القناع عن ماكيافيل الذي جعل منه في القرن الماضي منظر العظمة، وبدا أمر تأثيره لما ظهرت خطورة الوزراء المتبعين لنصائحه.

كم سيكون سعيداً ذاك الذي استطاع تحطيم الماكيافيلية في العالم، وإن حدث ذلك سأتأمل ملياً ما سيقع. لا أدعو الحاكمين إلا للمارسة الفضائل أمام الجميع، كما أتمنى أن ننتشل الناس من الفكرة التي كونوها عن السياسة، فهي لا تتعدى نسق الحكمة، لذلك سنشك في الأمر إن قامت على غيرها كالظلم والجهل بالعدل، كما نسعى إلى تربية الأمراء على

3 - Buridane: حكاية شعبية.

الصراحة والصدق النادر بين الحكام، ولهم نوضح أهمية الدفاع عن الإمارة، ومصالح دولهم، وقد نتحاشى محاسبتهم إن وجدت الضرورة (...). وأخيراً نرى أن الأمير الذي يرغب حيازة كل شيء يشبه في طبعه الشره، ذاك الذي يأكل دون تفكير. في حين أن العادل بين الناس كالإنسان الذي يأكل بقناعة خوفاً مما قد يحصل له من ذلك.

الباب الخامس والعشرون

حركت قضية حرية الإنسان الفلاسفة كثيراً، كما أثارت في نفس الوقت قلق اللاهوتيين مما جلب على معتنقيها كل أشكال الخزي واللعنة. قامت حجة الفلاسفة على الحرية المطلقة للإنسان. وإن كان غير ما قال به الفلاسفة فيعني أن الله هو الذي يجبر الإنسان على سلوك ما وأي سلوك، والنتيجة الحتمية لذلك هي أن الله هو الذي يقتل ويسرق، وهو أمر مخالف لتنزيهه وجلاله، كما ترغمنا هذه النتيجة المنطقية على التسامح مع مرتكبي الجرائم والسرقات والقتلة، وهي صورة حياة بدون فضائل.

وللمدافعين عن الجبرية تصور مغاير يناقض الأول، حيث يتصورون الله كالصانع الأعمى الذي يعمل في الظلام بعد خلقه للكون، يجهل ما يمكن أن يفعله كالساعاتي الذي يعرف غاية كل دولب ولولب وحركته بشكل مسبق، ولا يكتفي بعد الخلق إلا بالمراقبة الفضولية فقط لأفعال الناس وسلوكاتهم!

هل تترك الجبرية التي تحكم الكون للإنسان قدراً من الحرية والإستقلال؟

ليست الإرادة الإلهية هي التي تحكم العالم لكنها الفضائل ورغبات الناس، فإذا كان من اللازم التمييز بين الخالق والخلق من حيث الترابط، فمن

الطبيعي جداً أن النقص يعتري المخلوق وأن الإنفعالات والعقل كالسلاسل اللامرئية التي بفضلها تقود العناية الإلهية النوع البشري إلى القدر المحتوم الذي ينتظر كل واحد منا.

تقرب الناس من Seylla لاستبعاد Charybde، والفلاسفة المندفعين نحو هاوية الخطأ المنتحرين في الظلام. ويمكن أن نشبه حرب هؤلاء بحرب القرطاجنيين والرومان، بحيث لما هاجم الرومان القرطاجنيين كانت جيوشهم بإفريقيا في حرب هناك، ولما أرادوا القضاء على حنبعل وجد شيبو Scipion على رأس الجنود محاصراً قرطاجنة.

للفلاسفة واللاهوتيين وجميع أبطال الحجاج ذكاء السباحة الفرنسية، حيث يهاجمون بشراسة لكنهم ينهزمون حينما يجبرون على حروب دفاعية وكأن الله أعطاهم قدرة متساوية الأسلحة.

أطلق ماكيافيل على مسألتي الجبر والإختيار ميتافيزيقا السياسة لأن المسألة مجهولة بالنسبة له، فقط اعتنى بامكانية الحظ ودوره، والتفكير الجدي في الحكم، وتنمية المهارة.

إن الحظ والصدفة مقولتان فارغتان من كل معنى لأنهما يعودان في أصلهما للشعراء، ورغم ذلك علينا أن نجد لهما أصلاً لوجود جهل تام يفسد العالم حين نتكلم كلاماً مليئاً بمعاني عامة لا تعرف مدلولاتها. فما نسميه عادة بحظ القيصر هو مجموع المصادفات التي سمحت بتحقق نوايا الرجل، وما نطلق عليه سوء الطالع الذي أصاب كارتون Carton هو الحدث أو الأحداث المفاجئة المتسارعة التي تحول دون التنبؤ أو التصدي لها.

إن ما نعزيه للصدف يشبه لعبة النرد كما نقول عادة: كان الحظ بجانبي اثنى عشرة مرة عوض سبعة. ومن أجل أن نفهم الأمر فزيائيا وجب الإحتياط كثيراً وكأننا أمام أصوات متعددة مصدرها واحد.

تحتاج منا هذه المادة نقاشاً فلسفياً عميقاً ومتعمقاً في التجريد والتعقل. وبما أن الجميع لا يسعى إلى ذلك سنكتفي بالتوفيق بينها وإلا سنتيه لما نجد

الصدفة إسماً بلا وجود في الواقع، ونظل يومنا في مناقشة الصدف دون طائل.

ليس الأمر سيئاً بالنسبة للعقلاء لأن الحزن نابع من تناقض فرص الحظ، ففي رأي هؤلاء أن من بلغ الحظوة دون كفاءة يجعل القدر الأعمى آلهة.

إن قدرتنا محدودة جداً، وذلك لطبيعتنا البشرية، فإن استندنا للحكمة والتبصر سنحصل على ما نريده، لكن نظرتنا محدودة جداً لإدراك الأشياء.

وبما أننا ضعفاء بطبيعتنا فلن نكتفي بهذا الدليل لنركن للهزيمة، بل إلى الجهد البسيط الذي يمكن أن نحصل بواسطته على بعض النتائج إن أحسنا استعماله. لسنا الإله الذي يأمر الشيء فيأتي ويستجيب الأمر في الآن، بل لنا فقط في هذا الجانب العلوم المساعدة للإنسان لمعرفة الخبايا وبدايات الأحداث، وهي مسلك الإنسان قطعاً في المصادفات التي قد تحدث استقبالاً (...).

هناك نوعان من الطبائع، نوع بطيء الفهم والإدراك وآخر حي يقظ مستيقظ. ولما كانت الطبائع بالأعضاء يصعب على الأمراء تقليد الحرباء. لقد سمحت بعض العصور بظهور أمراء كأنهم خلقوا للغزو والإكتشاف، كما وجدوا الفرصة للتعبير عن كفاءاتهم الخطيرة، لكن هناك فترات أخرى لا تسمح بهذه المصادفات نظراً للهدوء والسلام السائدين ولو أنه هدوء يعقب الرعد والعواصف، يتطلب التفاوض والقلم عوض السيف والمعركة.

على كل أمير أن يساير الظروف بركوبه المصادفات كالربان المشغل للأشرعة المناسبة التي يتوفر عليها حينما تهب الرياح، وأن يركب وجهتها إلى غير مقصده (...).

سيعاني الشعب كثيراً إن حكمه أمير متهور جسور خاصة إذا لم يفكر في مصالحه دون طرق الحفاظ على الإمارات الجديدة وطرق الغزو. ولكي يجسد الأمراء العظمة عليهم أن يستغلوا كفاءاتهم وأخص هنا أولئك الذين جادت بهم السماء ليحكموا الشعوب والذين لا يقدمون على أي عمل إلا

بمخطط مدروس عوض مبرهنات هندسية بديهية، حيث يخول لهم المخطط تحقيق الهدف الذي يتبعونه بإخضاعهم جميع المصادفات والأحداث له. لكن من هؤلاء الأمراء الذين يتوفرون على هذه الكفاءة النادرة؟

إنهم بشر كالآخرين لا يسعدون جميع المواطنين كما هو الحال عند الشعراء القائلين بالحاكم الأسطورة أو الميتافيزيقيين كأفلاطون، فمن المؤكد أن الشعب الذي يجد في أميره إنساناً يسعى لسعادته ببذل الجهود والعطاء ليطمئن على مصيره، خاصة إذا كان سعيه مخالفاً لأمير ماكيافيل. ومن الطبيعي أيضاً أن نتحمل أخطاء الأمراء لطبيعتهم الإنسانية الناقصة، فالخطأ والضعف أمران يشترك فيهما الجميع. وبدون التسامح تصير الحياة جحيماً.

الباب السادس والعشرون

رأينا فيما سبق، وبينا من خلال هذا المؤلف الجهود التي بذلها ماكيافيل ليجعل من الإجرام طريقاً إلى مراتب العظماء، وعلى عكس نهجه سعيت لإثبات نقيض غايته، محرراً العالم من الخطأ الذي أصيب به وخاصة الأمراء المشتغلين بالسياسة، وقد أوضحت غير ما مرة إن الحكمة الحقيقية للأمراء تتجلى في الخير والتشبه بالكمال والفضائل لأن الغاية من هذا السلوك هي ديوع الخبر السار الذي يقف عائقاً أمام النوايا السيئة. فالشهرة المبنية على هذا الأساس تشبه البنيان المرصوص المقاوم لاعتداءات الدهر والأحقاب، كما يصون سلالة الأمير من كل طامع جاحد.

سأضيف في هذا المقام ملاحظتين؛ إحداهما تتعلق بأشكال التفاوض، والثانية بالأسباب التي تدفع أميراً معيناً للقيام بحروب مفتوحة.

قد يكون الوزراء المكلفون بالشؤون الخارجية مخبرين، مما يخول لهم الفرصة للتعرف على نوايا الأمراء ومنطلقاتهم وخططهم، وبالتالي يقدمونها لحكامهم بغية استغلالها لصالحهم.

والملاحظ في هذا الشأن هو أن الوزراء المتجسسين لا يزرعون من سلوكهم هذا إلا الشقاق بين الناس عوض التآخي والسلام، لإحساسهم بأن مكانتهم تعادل مهمتهم.

نوصي الأمراء بالحذر من هؤلاء، ومراقبة تحركاتهم قبل أن يعترفوا على أسرار البلاد والعباد والأمراء، وندعوهم لنفس الحذر لما يقبلون على عقد الأحلاف والمعاهدات، فالواجب في مثل هذه المناسبات هو تشريح الأشياء ووضع الإحتمالات، ودراسة الإمكانيات بغاية التعرف على الوجه الذي يعود بالنفع على الشعب، عوض قيامها على المكر والخيانة والمتاهة.

تبتدئ دراسة المعاهدات النقدية بالإعتناء باللغة التي كتبت بها، بحيث نستقدم النحويين المجادلين لأهل السياسة الحاذقين في هذا الأمر حتى يتم التمييز بين الروح والكلام، وبالتالي يحمينا ذلك من الوقوع في التدليس.

والواقع أن العقلاء من الناس وخاصة الأمراء منهم لا يصيبهم أي أسف بعدما يخصصون وقتا كافياً للتفكير في أي إلتزام أو معاهدة، ويمكنهم الإكتفاء بمقارنات محدودة إن أرغموا على الإلتجاء للنار كحل محتوم.

وفي رأينا نرى ضرورة تعويض الوزراء المفاوضين بغيرهم، ونقترح في هذا الباب أماكناً بعيدة للتفاوض.. فقد حدث نفس الأمر في مفاوضة الامبراطور لفرنسا، حيث تم التوقيع على معاهدة سلام بإحدى الضيعات الساحلية التابعة للإمبراطور بمنطقة الراين، كما جسد هذه السياسة الأمير الماكر السيد Victor-Amedée في عصره، فقد كان يجيد المكر والدهاء واخفاء نواياه عن الجميع، فبأمر منه إرتدى مرة المارشال De Catinat لباس الرهبان داعياً للسلام، وقد نجح المارشال في جر فرنسا من حزب الامبراطور، واعتبر الملاحظون آنذاك المفاوضة التي جرت بين المارشال وفرنسا حدثاً غير متوقع، وقد انتهت في الأخير بحلف بين فرنسا وساردينيا (...).

ينبغي على الأمراء أن يختاروا المتصفين بالتعالي لتكليفهم بالمفاوضات الشاقة، وأن يحتفظوا بالماكرين الدهاة وأصحاب البداهة الذين يستطيعون قراءة ما يجول بنفس الخصم وما يخطر بباله.

وأما ما يخص الأمراء أنفسهم لا يجب أن ينشغلوا بالحيل والرأفة إلا في أوقات معدودة كتلك التي تشتعل فيها الشهب الإصطناعية لما يتم تدشين مدينة جديدة بغاية التعرف على نوايا الأعداء ومدى نزاهتهم.

ونؤكد مرة أخرى أن السلم وسعادة الدولة هو الهدف الرئيسي والطبيعي للمفاوضات لأنه المركز الذي تلتقي عنده جميع الطرق والخطوط.

يقوم التوازن اليوم في أوربا على القوة الجامحة لبعض الملوك، وعلى التحالفات القائمة بين غيرهم. فمن غير المستبعد أن يتهدد بثورة عامة تترك الباب مفتوحاً لملكية مطلقة. ولذا نرى تمكن الأوربيين من سياسة التفاوض وعقد الأحلاف وإقامة المعاهدات، بحيث أن هذه السياسة هي الكفيلة بحماية الشعوب وإقامة السلم.

ولبلوغ المراد، على الحكام الإعراض عن الإصطفاء والإشمئزاز، والأخذ بأحكام النساء المسبقة والخلافات الشخصية، بل التطلع إلى ما هو أكبر، والتضحية من أجل الصالح لا الترهات (...).

سيكون العالم سعيداً إن وجد وسائل أخرى في المفاوضات لحل النزاع بها بين الأمم: يتسلح بالحجج الدامغة بدل الأسلحة الفتاكة، ويتجادل بأعلى صوت، وبلهجة شديدة النبرة عوض العراك، ولكن للأسف، فهناك ظروف تجبر الأمراء على الإتصاف بالشناعة وأخرى تدفعهم لحمل السلاح بغية حرية أريد القضاء عليها (...) فالحرب الجيدة تضمن السلام الطويل الأمد.

لنتطرق الآن لحرب تقوم في مناسبات دون إراقة دماء الرعايا ولا بدافع عجرفة الأمراء:

إن الحروب العادلة هي الحروب الدفاعية، فحينما يطمع الأعداء في غيرهم، يفرض سلوكهم هذا على الملوك أخذ مواقع دفاعية لأنهم مرغمون على الرد بالعنف على عنفهم، ولن تحميهم في ذاك غير قوة سلاحهم، ولن يعود النظام إلا بالفيالق العسكرية. وبما أنه لدينا الحق في معاقبة اللص المتلبس بنا يكون لنا كذلك حين نواجه المغتصبين الذين يستهدفون الإطاحة بالملوك، وكما هو الحال في الأولى فللملوك الحق أيضاً في الحروب التي تستهدف إقرار الحقوق والمطالب.

وبما أنه لا وجود لمحاكم تفوق سلطة الملوك، ولا وجود لقاض يقر لهم بحق ما فإن الحرب في هذه الحالة هي الوسيلة الوحيدة التي تقره إن جازت أسبابها، فلما يرفع الملوك السلاح فهم لا يريدون من ذلك إلا العدل واستبعاد العبودية، لذلك نرى رفعها مقدساً وضرورياً.

هناك حروب هجومية لا تقل عدالة عن الأولى، وحروب احتراسية يلجأ إليها أمراء أوربا حين يشعرون بتجبر جيرانهم الأقوياء. حين يشتد قصف الرعد لا نتضرع وحدنا بل نجد بجانبنا الكثير من المتضرعين لنفس السبب، فإن إلتحمت الشعوب الضعيفة ضد الرومان، لا يمكن أن يتهدد استقرارهم، لذا فإن الحلف المبني على الحكمة يجهض النوايا الخبيثة للطغاة.

الفهرس

الـــرد على ماكيافيل

تعترض الباحث المدقق في مؤلفات نيكولاس ماكياڤيل إشكالات لا محيد عنها، منها ما ينتمي للترجمة التي خصعت إليها مؤلفاته منذ منتصف القرن السادس عشر ، ومنها ما يرتبط بلحمة الأثر الماكياڤيلي نفسه. حيث لا نستطيع الإنفكاك عن اسئلة من قبيل:

1 ــ لأي جانب ينحاز الأثر الماكياڤيلي، للشعب أم الحكام؟ وأي نوع من الحكام وأي فئة من الشعب؟

2 ــ هل يحق لنا أن نحكم على تصور ماكياڤيل السياسي إنطلاقاً من كتاب "الأمير" وحده الشائعة قراءته بين الناس أم إنطلاقاً من مؤلفاته كلها رغم تناقضهاالبيّن؟

3 ــ ما نوع القراءات التي حضع لها ماكياڤيل في الغرب وعند العرب؟

4 ــ هل بإمكاننا أن نتحدث عن نهاية الماكياڤيلية بالنطر لتطور المؤسسات والدولة. والإبتعاد عن عصر الإقطاع في الغرب أم أنها حاضرة في بنية الدولة على الإطلاق. وفي كل تفكير سياسي كيفما كان؟

